فوزيّة مهران

مواقف قرآنية معاصرة

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

طوبى لمن يقيم القرآن .. ويستقيم عليه ..

هو بذلك يحيا حياة طيبة .. ويطيب له العيش ، وأمامه وعد بهيج قائم أن يكون مع (النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا) تكتب له العزة .. يشعر بالقوة والثقة .. يشع من حوله الدفء ويغمره الحب . يجعل الله له نوراً يمشى به فى الناس ..

الله سبحانه وتعالى يقول عن نفسه إنه (نور) .

وعن كتابه (النور الذى أنزلنا) .

ويجعل للمؤمنين علامة (نورهم يسعى بين أيديهم) .

ويصل بواو العطف الحانية بين الأجر والنور (لهم أجرهم ونورهم) . لذلك فمن يتمثل القرآن يستحضره داخله .. يستعصم

به .. ويعود إليه فى كل شأن من شئون حياته الخاصة والعامة يجد حلا وإجابة .. تثبيتاً ويقيناً .. هدى وبشرى ، ويكون وليًّا للمؤمنين .

طوبى لمن يتدارس وأسرته الصغيرة والكبيرة القرآن ..

إنه يدرك غاية سعيه وجهاده وعمله ..

ويمسك بين يديه بمعنى الحياة ذاتها .. ولا يكون أمامه إلا طريق الخير والعدل والالتزام بالحق ونفع الناس .

القرآن أعظم ميراث .

تعودت أحكى لصغيرتى قصصًا منه .. أروى لها مواقفه ، أتجول بها بين حنايا المدن القديمة والقرى الظالمة ، وسير المصلحين والمستكبرين ..

أريدها لتشب عليه .. يملأ جوفها القرآن ، تتشبع به خلاياها الداخلية .. تتفاعل معه بفطرتها السليمة ، وتتدرب على حرية الاختيار تقيمه .. يكون خلقها ، وأسلوبًا لحياتها .

أتابع صفحة وجهها البرىء . والشوق الذى تحمله نظرة عينيها .. قلقها ووجلها لحظات الشدة والابتلاء ، وانبهارها بالنصر والغلبة لجماعة المؤمنين .

وإذا بى أقف أمام تجربة نادرة ، وأتلمس فنًّا مبدعًا ، وتولد المعانى والصور والمواقف فى نفسى من جديد .

وجدت نفسى داخل عملية خلق فنية نورانية . ورؤى نضرة تتكشف ، والمتعة تتضاعف وتبرق لحظات التنوير .

كنت لكى أجسد لها المشهد أو أبرز معنى الصورة .. فإذا بالأحداث نابضة موحية .. مليئة بالحركة، مترعة بالمعانى والنور.

وإذا بى مثلها ومعها أتأمل الموقف من كل جوانبه، وألمس تفاصيل فائقة وأكتشف معنى وعمقًا آخر.

وتستبد بى متعة القص والرؤية .. والاستماع والتأمل.

الإبحار بين طيات الماضى .. وأنواء الحاضر القريب والممتد إلى بعيد .. أستلهم مواقف أقوام غابرين، وأعمال شخوص معاصرين ..

- كتاب مبين - لم يترك صغيرة ولا كبيرة .. وجاءنا « ببصائر » كثيرة .. علينا أن نبصر ونعى بها .. ونقدم خلاصة ما توصلنا إليه لأحبائنا.

* * *

قلت أكمل حديثا بيننا ..

- عرفنا من قصص الأنبياء كيف نستعصم بالصبر ؟ نجاهد جهاداً عظيًا، وندعو الله مخلصين .. مثل يوسف الصديق ؛ نتعلق بطرف الدلو لتكتب لنا النجاة.

قالت فجأة : وما « الدلو » ؟

- إناء يستقى به.

« أحسست بها ترقب المشهد من بدايته ؛ وتصعد ناظريها من قاع البئر .. ويلقى وارد بعض السيارة بدلوه .. ويتعلق به الغلام الجميل

يبغى «مخرجًا».. شدتنى رؤيتها.

احترمت صمتها.. وأخذت أتلمس معها وحشة «غيابةِ الجب» «كم من مرة ألقى بنا فى قاع البئر؛ وقيل عنا كذبًا - أكلنا الذئب، وتهددتنا الوحوش البشرية وآلات الدمار العصرية وامتدت لنا يد الله.. وتعلقنا بحبله المتين..».

مرة أخرى أتذكر «الدلو» - وعاء ندليه فى الماء - قلت أحرك صمتها: ويقولون يا بنتى: «يدلى بدلوه»، أى يضيف، ويلقى بما لديه من معلومات.

هللت بحماس وفرح طفولى:

- كأنما الحقيقة تحتاج لماء.

أعجبنى تصورها.. أصبح مجال الرؤية فسيحًا..

- الحقيقة والأرض (**إذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**).

الحقيقة تحتاج لترتوى.. للسقيا دائمًا..

نتدلى إليها.. نقترب منها.. ننهل من نبعها، نعود وندلى بدلونا - أى نضيف رؤية جديدة - نكشف عن معنى كامن.. نوسع رقعة الصورة.. نجمع مفرداتها فتنطق بذاتها..

وطوبى لمن يشتغل بطاعة الله، ويجاهد بالقرآن ويقدم للناس نفعًا وحبًا.

فوزية مهران

نصر الله قريب

فى الفجر نولد من جديد..

« تَوْءَمًا ».. لحظة بزوغ المعجزة واختلاف الليل والنهار، نبدأ يومنا بإقامة القرآن - نتلوه حق تلاوته.

ونأخذ ما آتانا ربنا بقوّة، نستعين به على الحياة ودفع الأذى والاستقامة وتثبيت الخطا.

وفى كل مرّة نقف على نبع من نور ونتصل ببحور بالغة العمق.. واسعة المدى، محيطة بكل شىء، ودائمًا نكتشف شيئًا جديدًا ومبهرًا.

واكتسبنا بذلك عادةً جميلةً.. شغفتنا حبًّا، وأضفت على الحياة مذاقا رائعًا.. وبهيجًا.

نحن على موعد مع الله في البكور – ساعة خلق المعجزة. وتنفس يوم جديد.. ننصت لكلماته.. ونجد فيها « تبيانًا لكل شيء » وما أروع أن نتحاب في الله.. ونقيم قرآنه، ونتدبّر آياته، نحسن بها أسلوب عملنا.. ونصوغ بها أنفسنا. ونثرى معيشتنا وذواتنا.

توقفنا طويلًا أمام هذه الآية:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضّراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب).

في كل زمان يأتي أناس ويحسبون أنهم « يدخلون الجنّة » بمجرّد الانتهاء إلى الإسلام – تلك أمانيّهم

الدين ليس جنسيةً تمنح صاحبها جواز المرور إلى العلا.. هكذا.

بل الدين عمل وأداء وإقامة.

الدين جهادٌ، وصبرٌ ومجاهدة وعزمٌ وصلابة وقوّة احتمال أمام الشدائد، والمصاعب والامتحان.

الإسلام نظام جامع، يحدّد الحقوق والواجبات ويهدى القلوب.

والخطاب موجّه إلى المسلمين الأوائل ولكلّ زمان يأتي من بعدهم، أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة، وتنالوا رضوان الله من غير أن تفتنوا في سبيل الحق، ويطبق عليكم شتى صنوف الابتلاء

والامتحان حتى يتبين صدق إيمانكم.. وثباتكم على الدين.

انظروا حال الأمم التى جاءت من قبلكم - وعلى رأسهم - الرسل - عباد الله المخلصين.. المختارين من بين البشر ليبلّغوا الأمانة وينشروا الرسالة عانوا أشدّ أنواع العذاب، والبلاء.. وأصابهم الضرّ، وتعرّضوا لصراعات شرسة وحروب مستطيرة.

حتى لقد اقترب بعض « الرسل » من حافة اليأس (وظنوا أنهم قد كذبوا) وبعضهم - ولّى الأدبار - أبق إلى الفلك المشحون.. وهرب من الله، ثم عادوا وندموا.. تابوا.. فجاءهم نصر الله ونجاهم - ومن معهم.

المسألة ليست ببساطة إذن مجرّد أن يقول الناس آمنّا يدخلون الجنّة ويميّزون عن سائر الخلق.

- هذا ظنّهم - لكن الإسلام موقف وعمل وموثق.

المسلم يلتزم بالوقوف بجانب الحق، ولا يخشى فى الله شيئًا ولا يكتم الشهادة، ويقاوم الظلم والقهر وأدوات إخضاع الناس لغير الله.

هذا الموقف الأوّلى - يجلب على صاحبه الشدّة والاضطهاد.. والتعذيب ووسائل الضغوط المستحدثة، وصنوف التعذيب النفسى والمادّى الابتلاء والفتنة والمحن هى التى تكشف معدن الإنسان الحقيقى.. وتؤكّد إيمانه.

وكثير من ضعاف الإيمان.. يفرّون من المعركة، ويستسلمون فى

بداية الطريق ويشترون السلامة المهينة. والمنفعة السطحية.

وبعضهم يسوّى بين ابتلاء الله .. وفتنة البشر .. ويجعل لله أندادًا، ويخضع عنقه للسلطان فى الدنيا.

وكثير منهم فى أتون المعركة مع الرسول « سقطوا » وقال المنافقون : (ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا).

وتساءل المؤمنون – ومعهم – الرسل .. متى نصر الله ؟ يستعجلونه فى الشدّة .. وتجىء الإجابة المؤكدة .. والفعل الحاسم ..

– إن نصر الله قريب – يشملنا العتاب الربّانى إذن ..

أين نحن مما أصاب المؤمنين قبلنا ؟.

مسّنا الضُّر حقًّا .. وأوذينا .. وأخرجنا من ديارنا، ولكنّا دون الذين هاجروا وجاهدوا واستشهدوا.

علينا بمزيد من العمل الصالح، والمجاهدة والصبر أعلى مراتب الصبر والصمود .. حتى نتسامى إلى مرتبة الصدّيقين والصالحين والشهداء.

والخطاب موجّه للجميع الذاهبين والحاضرين، ومن يأتون من بعدنا.

يضمّنا « الاستفهام » كأمة وأفراد.

ودائمًا يتعرّض المؤمنون « جماعةً وأشخاصًا » لحروب .. وحصار، وزلزلة ، فهل نثبت ونصابر ونجاهد.

اجتاحنا الزلزال .. من الخارج والداخل .. ويتصاعد حتى نصل

إلى مراحل انعدام الوزن، وأحرقنا السؤال - نردّده على - استحياء - متى نصر الله ؟.. ويجعل الله لنا فرجًا ومخرجًا.

« والحكّام والولاة » ضمن المخاطبين أيضًا من الرحمن..

كثير منهم يكتفون - بنسبهم - إلى الإسلام.. ويحكمون.. بل ويدعى « البعض » أنه يحكم بالإسلام!

ومع ذلك يسلبون حرّية شعوبهم ويكرهون الناس على الزيف والفساد، ويأكلون أموالهم بالباطل.. فعليهم أن يفيقوا من غفوتهم، ويراجعوا أنفسهم ويتعلّموا شريعة الله ويطبقّونها.

وتجيء الآية مكملة لما قبلها من آيات، وبعد أن تعرفنا على « مثلّث الصبر المهول » - البأساء.. والضرّاء وحين البأس - البرّ، أن تصبر على ثلاثية الصبر هذه.

والتقوى هى أن تقدر عليها..

هنا تتصعّد إلى الدرجات العلا، وتنال شرف عناية الرحمن.. وتجد وعد الله حقًّا..

العزّة.. والغلبة.. والنجاة.. والنصر الأكيد.

ولنتأمّل كلمة « يقول » - حتى يقول الرسول - لماذا جاءت بصيغة المضارع، برغم أنها من الماضى الموغل فى القدم والأقوام التى خلت من قبل - والأمم التى أحاطت بها الشدّة لدرجة استعجل بها - الرسل - نصر الله ؟..

صيغة المضارع جاءت لتصوير الموقف - على أنه حاضر -

وتصوّر الشدّة والهول، فيخفف ما نحن فيه الآن، وتثبت بنا الأقدام على مآسى القرن العشرين المروّعة -

لكى تلفتنا بشدّة - لما كان - ونعود لنطبق آيات القرآن على زمننا ومعاناتنا - وما يجرى من أحداث بيننا..

الأمر ممتد وقائم منذ ذلك التاريخ القديم حتى عصرنا.. والمستقبل أيضًا.

« وكأنها صيغة المضارع التام فى اللغات الأجنبية، تفيد الامتداد والاتصال.

ولعل صيغة المضارع للتأكيد - على وحدة الأمة -

فنحن - المخاطبين بالقرآن - كأفراد وجماعة..

ولو أن كل مؤمن عرف طريقه، ولم يفتن فى دينه، ولم يجعل ابتلاء الله كعذاب الناس.. لقويت جماعة المؤمنين، ونهضت الأمة وقويت، وجاءها نصر الله.

ونقول فى اطمئنان الحمد لله:

علينا طريق الصبر والمجاهدة.

نعمل لنفوز فى الامتحان، ونجد وعد الله « حاضرًا » بين أيدينا يسعى النصر، وتزف إلينا البشرى.

الموت صبرًا

يقول الإمام الشافعى :
« أخذت من القرآن علمًا عظيمًا» . قلت :
وزد يا أخى فنًّا عظيمًا .

تعوّدت أن أستلهم قصص القرآن – وهى أحسن القصص – نخوض صراع الأبطال المختارين من البشر ، والمصطفين من الناس ونعيش الموقف كاملًا ، فوق أتون الصراع ، ثم يسطع نور الحقيقة ونصل إلى « لحظة التنوير » فى حياتنا ، إلى معنى الحياة ذاتها وكيف يجب أن نحياها .

والقصد من القصص القرآنى أن يتثبّت منّا الفؤاد ، ويتطهّر ونتعوّد أن نقيس بمقياس الدين ونصبر مثل أولى العزم من الرسل وحتى نكون ربّانيّين أنبقياء أتقياء ، وتكون حياتنا حبًّا وسلامًا . ومن البيان المعجز ، والعظة البليغة لنا أن ننهل ونتعلّم كيف يكون هدف الكتابة للناس ؟ .

وفى قصص القرآن نجد مسرحًا متكاملًا مواقف باهرة نصل فيها إلى قمة الصراع بين الخير والشر، وتحتدم الأزمة وتصل « الحبكة » إلى مداها .. ثم تنفرج الأزمة ويسطع الحق . وأعجب أن يتأخر المسرح فى بلاد العرب والمسلمين ولدينا كل ذلك التراث الزاخر والمشاهد الموحية، ووقائع الصراع الدائم، والأبطال من الصفوة والعامة والآثمة قلوبهم وحكايا الطغاة مأساة وملهاة ؛ دعينا لنلعب أدوارها ونخوض الصراع لو كنا مزوّدين بهداية العقل والدين ، فيمكن أن نحسن أداءنا ونصلح أعمالنا .. ونستقيم لننتصر ونصل إلى أعلى مكانة، وإلى أسمى مراتب الرضا والصفاء .

* * *

يوسف أيها الصديق ..

يالعتوّ المواقف التى اجتزتها فى حياتك، منذ أن كنت غلامًا صغيرًا .. موقف واحد منها يكفى حياة إنسانيةً بأكملها، ويكون الإنسان قد عاش وجرب وجاهد وصبر ونال رضاء النفس والله .

قصّة يوسف جاءت حافلةً بالبينّات .. متشابكة الأحداث . تتفجّر بالصراع ويهوى الحدث فيها إلى قمة البؤس والإظلام، ثم تستقيم الأمور وتقع مفاجآت، من حيث لا يحتسب الأبطال والمشاهدون وجمهرة القراء .

ونصل إلى القمّة .. إلى العزّة والقوّة والجلال .

* * *

موقف واحد أركزّ عليه تحليلى الآن :

يوسف فى السجن .

على الرغم من أنه برىء ، عفّ القلب واللسان .. كريم وابن الأكرمين من الأنبياء - يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

ثبتت براءة يوسف بالدليل القاطع ، والأدّلة المقنعة ألقت عليه الاتهام « امرأة » ذات حسن ومكانة .

صوّرت المشهد بدهاء ومكر النساء ، وتبعًا لقانون العقوبات فى ذلك الزمان الموت أو السجن وسوء العذاب .

لكن سبحانه مظهر الحق ..

وشهد شاهد من أهلها .. صدق يوسف وكانت من الكاذبين .. الخيانة واضحةً ، والافتراء معلّقٌ برقبة فتىً عفيف نضير .. لكنهم - كالعادة فى البلاط والقصور - تعوّدوا أن يخفوا الفضائح ، ويزيحوا دليل البراءة ، ويكتموا الحق وهم يعلمون .

(بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين)

أودع يوسف السجن كالجوهرة النادرة ، هبط إلى قاع الأرض وديعةً غاليةً مخبوءةً عن كيد النساء القادرات ومكرهن .. وعن الشراهة والجشع والزيف .

وسبحان الله العظيم .. لقد قالها يوسف الصديق ، هتف بها وهو فى أعماق المحنة ، والأيدى الآثمة تشدّه إلى التردّى إلى قاع الخطيئة

والمعصية . قالها الفتى النضير (ربِّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه) هتف بها كلمة سواء ، كأنها قدّت من نور وسجِّلت فى اللوح المحفوظ .

لقد اختار ..

والاختيار حريّة .

السجن إذن حريّة ، أحبّ إليه من أن يرتع فى الخيانة ، ويصعد فوق كتفى امرأة مبتذلة ، اختار ليحرّر إرادته وإنسانيته ويحافظ على عفته واستقامته .. السجن أحبّ إليه من إهدار كيانه كإنسان .. وخيانة نفسه والرجل الذى أكرم مثواه ..

وفتح السجن أبوابه وابتلع الشهيد البرىء ، مثل غيابة الجبّ .. أو فم الحوت .. « ظلمات فوق ظلمات » .. أو حالق الضياع .. لم يكن أمامه مخرج ، ولا طاقة فرج .

لا خروج .. سجينٌ إلى الأبد .

ليس أمامه إلّا أنّ يموت ببطء وصبر .

مات العزيز، وتغيرت إدارة السجن ، والكل يذهب ويجيء .. تثبت البراءة أو يوفّى مدّة العقوبة أو يعدم ، أو ينتظر الإفراج .. لكن يوسف : سجين بلا أوراق ولا محاكمة ، ولا نصّ لعقوبة .. ولا قرار خروج ، ولا حتى عذاب الانتظار ..

غريب ، مشرّد .. جاء من الجبّ إلى العبودية ، شروه بثمن بخس ، وعاصر محنة « المراودة عن النفس » .

ولما أبى واستعصم زج بالسجن.

ليس له قريب فى وادى النيل، لا أحد يهتم بأمره، أو يسأل عنه أو يبحث ما ألمّ به.

ألقى به مرةً ثانيةً إلى غيابة الجب، وليس أمامه إلا الموت البطىء والصبر الطويل.

ياله من موقف.. قمة اليأس والإظلام.

لكنه ابتلاءٌ من الله واختبار.. ولا يصحّ لفتىً رائع، تمسّك بطهره وقهر نفسه.. وانتصر عليها أن ييأس من روح الله.

الله عندما يحبّ عباده، ويصطفيهم: يظهرهم على أناس العالمين، يدربّهم فى مدرسة الصمود الإلهى والصبر الجميل، ثم ينجّيهم وينصرهم ويجعلهم آيةً للمتّقين وعلى مرّ العصور..

كان يوسف – من أولى العزم من الرسل:

صبر على الابتلاء..

كانت فترة السجن خلوةً للتفكير والتأمل، وذكر الله والاستزادة من العلم والمعرفة والاتصال بالآخرين، والتعامل بأنقى ما فى إنسانيته.

كان السجن خلوةً واعتكافًا للعبادة والمناجاة، وخدمة الآخرين كان يمارس عمله داخل السجن، ويعلّم المساجين: الأبرياء منهم والضحايا والخطاة والمذنبين.

يقول لهم: (إنّى تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله).

وكان يواصل دعوته للتوحيد.. وعبادة الله الخالق البديع.
(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار).

وذلك يبصّرنا أن الإنسان يستطيع أن يواصل رسالته ودعوته تحت أقسى الظروف ، ولا يتوانى عن أداء مهمّته مهما كانت القيود والملمّات.

كان السجن حريةً ؛ لأنه اختاره وفضّله.

حماية من الانزلاق إلى الدنيا ، أو الصعود إلى أعلى المراتب مجلّلاً بالعار والمهانة والإثم.

السجن حرية بهذا المعنى.

مكان أفضل وأبهى وأرحب من كلّ قصور الدنيا والضياع والساحات المزدانة بالغة الفخامة والثراء.

واستجاب الله لدعائه..

فهل ييأس وينوح ، ويبكى موقفه الصامد..

قرّ أن يكون حبًّا وسلامًا للآخرين ، يدخل معهم فى حوار.. يناقشهم بالحجّة والموعظة الحسنة.. يدعوهم إلى الإيمان ، يدخل عالمهم يحلّل رؤاهم وأحلامهم وأفكارهم الباطنة والظاهرة..

هو فى موقف فقد فيه كلّ شيء ، حتى الأمل لا يبدو واضحًا.. لكنه كسب نفسه.

ومعه الله ، والله لا يضيّعه أبدًا.. تلك ثقته وإيمانه العميق.

كتب النصر والعزة لأوليائه الصالحين..

وطالت المدّة وأفرج عن كثير من أصحاب السجن، ولما أفرج عن ساقى الملك ؛ انتابه الضعف الإنسانى الجميل..

وقال له : اذكرنى عند سيدك ، اقصص عليه قصتى.. والظلم الذى وقع علىّ، وسجنى بلا خروج لكنها غلطة، فالبشر لا يملكون لبعضهم شيئًا.

– ولو اجتمعوا

وأراد الله به خيرًا..

أن يطيل من فترة التزكية والتدريب والتطهير.

ويظهر به تلك الحكمة الجليلة الفائقة.. لا تستعن بمخلوق مهما ، كان استعن بالله، واطلب من الله حاجتك ، هو وحده القادر على الإجابة.

وجعل صاحب السجن ينساه..

(فلبث فى السجن بضع سنين)

إلى أن حلم فرعون حلمه العجَيب، وعجز السحرة والكهنة والمثقفون فى ذلك الزمان عن استجلاء رموزه وتحليل صوره.

هنا أمر الله الساقى أن يتذكّر، ويذكر يوسف الذى أعطاه الله علمًا وحكمة.

وقدر أن يحلل معنى الحلم، ويترجم صوره إلى رؤية واقعية، وخريطة مدروسة للواقع موصولة بحركة المجتمع.

ووجد برهان ربّه حاضرًا إذ نجّاه ونصره ، ومكن له فى الأرض ..
ملكًا وعزّة ، ومسئوليةً يشيع فيها العدل والمساواة بين الناس
ويكون هدايةً وسلاما للعالمين .

أسلمت وجهى لله

الله ..

(ليس كمثله شيء)

ويتعلق كل الحب الإلهى بهذه العبارة الربانية الباهرة – التى سمّى بها نفسه – وصاغها إعجازًا وتبيانًا لكلّ شيء.

(ليس كمثله شيء)

ونحن البشر عندما يغمرنا النور، ونجد أنّا قد شغفتنا « الذات العلية » حبًّا نريد لنستقبل وجهه، نولّى وجهتنا إلى المعبود الخالق بديع السموات والأرض.

والله واسع لا يتحدّد، ولا يحصر.

محيط يسع علمه كلّ شيء.

منزّه عن المادّة والجهة .. أعلمنا أن له ملك السموات وله المشرق والمغرب (فأينما تولوا فثم وجه الله).

ولكنه رحيم، عيّن لنا مكانًا سمّاه بيته.

وشرع لنا وجهةً نستقبلها لعبادته..

حدّد اتجاهًا جامعًا للناس على أفضل الأعمال، ويؤلف بين قلوبهم.

(وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمنًا واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى).

أقام « إبراهيم » البيت .. وطهراه - هو وإسماعيل - للطائفين والعاكفين والركع السجود.

لكن الناس تباعدت عن ملّة إبراهيم، واستحبوا العمى على الهداية فسكنت الكعبة الأصنام والحجارة.. لذلك لم تكن قبلة المسلمين الأولى إلى الكعبة بل المسجد الأقصى فى بيت المقدس.

وحتى يطهر الله بيته من الأوثان وبغى المشركين، وكأنها مؤشر لمستقبل الدعوة الإسلامية، وشارة مستقبلية تتم فيها النعمة ويكون النصر والغلبة لعباده المستضعفين، فى الأرض - يمكّن لهم من دينهم، ويبدّلهم من بعد خوفهم أمنًا.

وعدٌ قائمٌ - ووعد الله كان مفعولا - يعود المسلمون ويفتحون مكة، وقلب الرسول كان يتعلّق بمكة.

كان يصلى جهة الجنوب مستقبلاً الشمال.. وكأنه يجمع

استقبال صخرة المسجد الأقصى ومكة ..

لكن عندما هاجر إلى المدينة، تعذر عليه هذا الجمع ..

ابتدأ الله سبحانه وتعالى قصة تحويل القبلة بالمفاجأة .. من النهاية أو من ذروة الحدث فيها، واحتدام الموقف، وقمّة الصراع وألقى الخبر المذهل وسط كل جوّ الترقب والتبتّل ونذر العاصفة.

يقول عز وجل :

(سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها).

فكأنما ألقى النبأ العظيم (تحويل القبلة) فى سياق ما يحدث من ردّ الفعل عليه مهد للأمر الجلل وبما سيقوله عنه « السفهاء » .. وما يثيرونه من فتنة وجدال، وأشار إلى الفرقة التى ستحدثها مسألة التحويل ذاتها ..

وتلطفّ الله بنبيه الكريم والمؤمنين معه ، وهداه بصيغة « الأمر والحب » إلى ما يقول ويفعل إزاء هذه المحنة الجديدة، والفتنة البالغة ..

(قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

لقنهم الله حجةً بليغةً، وكلمةَ سواء .. ومنطقًا مقنعًا لما سيقع وهداهم إلى قاعدة إسلامية فائقة هى إعمال الفكر، وحسن تدبّر

الأمور واستخراج الحكمة من التجارب والمحن .. ينبثق ذلك عن يقين أن كل ما يصدر عن الله فهو خير وحق.

واضطرب ضعاف الإيمان، وفتنوا عن دينهم، وعادوا إلى الشرك وتمخضت المعركة - كما فصّلت الآيات بعد ذلك - عن نبذ تلك الفئات المضطربة ضعيفة الإيمان..

وعلم الناس موقعهم وأنفسهم بعد مرارة الابتلاء، وتطهر جيش الحق وشفيت الصدور بنور الهداية وجلاء البصيرة، وتمت اللياقة للدين المجاهد وللنضال.

● وما أحوجنا فى عصرنا الحالى إلى أن نستلهم هذه المواقف، ونحذر كيد « السفهاء » فى الخارج والداخل حتى نعود أمةً وسطًا - كما يحبّ الله لنا أن نكون - أى خيار وعدول .. معتدلين فى كل الأمور..

لا نفرّط ولا نغالى، ولا نجنح للتقليد والجمود على مظاهر الأشياء ودائمًا « السفهاء » « تشابهت قلوبهم » عبر العصور والأزمنة من قبل ومن بعد..

دائمًا يثيرون الزوابع ويجادلون ويوقعون بيننا لنختلف ونتفرّق شيعًا وينقلب فريق منا إلى الكفر، وهم فى كل قضية - محلية أو قومية أو عالمية - يجروننا للتفاصيل الفرعية، وللمنطق الأكروبات العقلية يبعدوننا عن تبيين حقيقة الأمر..

ويعظم الخلاف والجدل وتصير فتنة وتناحرًا على البقاء، دون العمل والسلوك.

متى نتعلّم ديننا؟

متى لا نهجر قرآننا؟ ونتزوّد من تلك الآيات البينّات.

ونتعلم من قصص أقوام سبقونا، كانوا أشدّ منّا قوةً وآثارًا ولكن أى منقلب ينقلبون..

* * *

نعود لأمر تحويل القبلة..

بعد ذلك الأسلوب المعجز من التمهيد والتصور، واجتياز الأزمة و« ثبوت علم الوقوع » أمام المؤمنين، يتولّى الله العظيم القول:

(قد نرى تقلُّب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره).

هذا التبتل والتوجه هو الذى يتقبّله الله ويهدى قلب صاحبه.. من الله على رسوله « بقبلة يرضاها » وقرن هذا الوعد بصيغة الأمر، دليل على أمر التحوّل..

وما أجمل تلك الصياغة الربانية المعجزة، يزفّ الله الوعد والبشرى للرسول، وضمنًا للمؤمنين لكنه يؤكّده بتوجيهه إليهم أيضًا لتطمئن قلوبهم، وتشتدّ عزيمتهم ويصمدون..

بعد ذلك يعود إلى حال « السفهاء » مثيرى الفتنة والجدل

العقيم ومروجى قول السوء..

إن أهل الكتاب لديهم العلم، ويعرفون أنه الحق.. وهذا ما كان يحزن الرسول؛ فلو أن الخلط جاء من جانب الكفار لكان الأمر هينًا.. جبل العرب على احترامهم وإجلالهم وتهيّب علمهم.. ومن هنا جاء خطرهم.. الله يوضح الأمر - لرسوله والمؤمنين -

إنهم يعرفون الحق، لكنهم قوم معاندون يودّون لو يفتنون الناس عن دينهم الحق.. هذا هو الهدف.

لا تهمّ القبلة فى حدّ ذاتها.. وما فضل صخرة بيت المقدس على الكعبة ؟

على العكس.. قبلة إبراهيم أجدى بالاجتماع عليها، لكن الهدف الأساسى ألا يظهر هذا الدين الحق..

يلقن الله عباده المؤمنين دروسًا عظيمة فى مدرسة النضال والجهاد والوقوف بجانب الحق.

ليس الأمر تنافسًا بالحجّة والمنطق، أو تقارعًا للبلاغة والقياس وإقامة البرهان والدليل..

لو أنك جئتهم بكل آية مبصرة ما اتبعوا ملتك، ولا قبلتك فلا يحزنك قولهم.

ويعود توجيه الخطاب للنبى بشدّة بالغة؛ أنه لو اتبع أهواءهم بعد الذى جاءه من العلم (**إنك إذن لمن الظالمين**)

حاشا لله أن يحيد الصادق الأمين.. لكن الوعيد هنا للمؤمنين ألّا

يظلموا أنفسهم، ويدخلوا في حوار عقيم مع المكابرين ومحاولة إقناع الذات بالتظاهر ، باتباع أهوائهم من أجل إقناعهم، أو جذبهم إلى طريق الحق..

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده:

« هذا الوعيد لأعلى الناس مقامًا هو أشدّ وعيد لغيره ممن يتبّع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل ولو لغرض صحيح ».

قلت : وقد جرى ذلك في عصور كثيرة وعهود.. فأى ذنب عظيم للذين يتبعون أهواء المتكبرين ، ويتظاهرون بالعلم ويشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؟

سدنة التبرير من يكتمون الحق ، ويزينون الباطل هو موقف الخزى في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى.

دروس سياسية ودينية عظيمة ، لا ينبغى لأحد من المؤمنين - بعد ما يتبين الحق - أن يفكر في استمالة أهل الهوى والبغى .. حتى لو كان يرجو من ذلك فائدتهم، أو اتقاء مضرتهم، أو طموحًا لهدايتهم والتأثير عليهم فيما بعد.

هو ظالم لنفسه وللحق.

لابدّ إذن من التخلص من تلك النظرية السياسية القديمة « المهترئة » والتى تقول « إن الغاية تبرر الوسيلة ».

لقد ثبت فسادها وزيف أركانها..

كانت المبرر والمرتقى لكثير من السياسيين أنهم إنما يسايرون الخطاة حتى لا يمعنوا فى جورهم، وقد يكسبون بوجودهم بعض المكاسب للناس، ويتمكنون من الهمس فى آذانهم - وبها وقرٌ دائمًا - فى ساعة صفو ليعودوا إلى سواء السبيل.

ثبت أن ذلك باطل، وموقف متردٌ متخاذل، وصمت عن الحق، لنثبت على الحق ،ونجاهد بالقرآن جهادًا عظيمًا.

الفلك المشحون

نعم تستطيع وأنت الإنسان البسيط أن تقتدى بالأنبياء ، وأولى العزم من الرسل .

تتدرّب على أن تقيس بمقياس الدين ، وتقارن بين موقفك وابتلاء الأئمة والصالحين .

وترقب مشهد النهاية للمسرحية الخالدة ، وخاتمة الصراع بين الأقوام المتكبرين والملوك العالين فى الأرض والضالّين .

وتنظر كيف تكون عاقبة المتّقين .

تبهرنى دائمًا قصّة سيدنا نوح أقدم الأنبياء وأطولهم عمرًا .. وأكثرهم إلحاحًا ودعاءً لقومه ، ومجادلتهم وإقامة أسباب الحوار معهم حتى يتبّعوا طريق الخير والهدى ويدعوا ما هم فيه من إثم وضلال

وكبْرٍ مقيت. ينصح لهم، ويبلّغهم رسالات ربّه، ولا يريد منهم أجرًا.

كان طويل الصبر والنفس، يقوم على الدعوة ليلًا ونهارًا، ولم يزدهم دعاؤه إلّا فرارًا، حتى كاد ييأس ويداخله الهمّ والحزن، لكن الله لقّنه القاعدة الأولى لمبدأ الصمود والثبات ألّا ييأس أو يحزن حتى لو اتبعه قليل.

ولهذا قصّ على نبيّنا الكريم - نبأ نوح - وقومه وكانوا من المتكبّرين، ما يثبت به فؤاده أمام غطرسة أثرياء قريش، وشراسة مقاومتهم للدين. فما هو إلا نذيرٌ وبشير، والله فعّال لما يريد.

وهو درس لنا نحن - أمّة محمد - وللعالمين بأن نستمر أفرادًا وجماعات فى تأدية رسالتنا، وتحسين عملنا وصلاحه، وألّا يعترينا اليأس مهما كانت قسوة الظروف وبغى المتسلّطين، وقلّة عدد الأتقياء التابعين.

تعذّب نوح كثيرًا وطويلًا.. لا يكاد يرى ثمرة لجهده العظيم ولا يصحّ غرسه وسط قوم بور، ورماه قومه بما هم فيه من ضلال وسفه والمسألة هكذا دائمًا - ومنذ البداية - عندما لا تصادف الدعوة هوًى فى نفوس أصحاب الجاه والسلطان، ويخشون على مكانتهم وتميزهم ونفوذهم يلقون بتهمة « الضلال » على الداعية، أو « المفكرّ » ويدسّون عليه الحكايات والأقاويل.. ويدعّون عليه بالاختلال والجنون، حتى تخشاه العامة ولا تنصت لما يقول.

وكأنهم – الغابرين – من قادة العالم المعاصرين .. حيث تزيّف الحقائق وسائل الإعلام، وتشدّ انتباه عموم الناس بعيدًا عن دعوة الحق والإصلاح.

تشابهت قلوبهم – ومنذ عصر نوح – وامتدّت نفس الأساليب بصيغة المضارع التام إلى حافة نهاية القرن العشرين.

استنكف الثراة والمترفون أن يضمّهم دينٌ واحد، وتنظيمٌ ربّانى موحّد مع البؤساء.

دائمًا مقياسهم الثراء والجاه والنسب .. أما حقيقة الإنسان وعلمه وعمله فدون مستوى المقاييس، ولمّا ضاقوا بمحاوراته وجداله .. وصدق منطقه وقوّة حجّته هدّدوه بالرجم والتعذيب. بل وزادوا فى صلفهم وتحدّيهم « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هنا أوحى الله إلى نوح « أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » والفلك لم تكن معروفة بعد – فى ذلك الحين – لكنّ الله علّم نبيّه نوح وألهمه كيف يصنعها ويقيم بناءها، ويثبت بها قوانين طبيعية وقواعد حركة الكون.

لدرجة أنه جاء ذكر الفلك، وسط الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله (**إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس**).

واحتار العلماء أن يجىء ترتيبها متقدّما وسط الآيات الكونية، مع أن للإنسان فيها صنعة.

وأعتقد أنها جاءت كذلك ، لأنها دليل هداية ورحمة أيضًا فالله سبحانه جعل نوحا يصنعها بوحيه وعلى عينه.

كانوا يسخرون منه كلما مرّوا عليه ، وتعوّد نوح الصبر وتمرّس به..

إن الكسب السريع فى بداية معركة أو مباراة لا يحدّد مصير الحرب أو المباراة النهائية..

صبر نوح على مرار السخرية وغشم الجهل ، وتنطّع الجهال.. حتى يرى الله أمرًا ، ولنعلم « من يأتيه عذاب يخزيه » وفى ذلك آية لنا.. الصبر معلّمنا وملهمنا طوق النجاة ، وحاجز الأمواج وراية الخلاص..

الصبر الخصيب الذى يحمل نواة الاحتمال والاستمرار والمثابرة ومجاهدة مشاعر اليأس والملل والقلق ، حتى تحت أقسى الظروف وأصعبها.

وجاء موعدهم – مثل كل الملأ المتكبرين – فار التنور وفتحت عيون السماء ، وارتفع الموج كالجبال ، وأحيط بهم..

وصف مشاهد الطوفان إعجاز بيانى من لدن حكيم خبير.. أبرزت بريشة المصور المبدع ، صورا فائقة مروّعة صاخبة الحركة.. عنيفة الإيقاع حتى « المفردات » تعطى الحركة مجسمة حتى « ليحيط » بنا الموج وندرك عن يقين ألاّ ملجأ من الله إلاّ إليه..

ثم تهدأ العاصفة ، ويأتى الأمر الإلهى (يا أرض ابلعى ماءك

وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر).

تبهرنى دائمًا قصة نوح ذلك الملاح الماهر، والربّان المنقذ للفلك المشحون، والأرض من حوله تغتسل بالطوفان من المفسدين المستكبرين..

ويوما لم يكن لى ملاذ سوى وقفته النبيلة، وهو ينادى ابنه، ويدعو ربه.

كنت أركن للقرار فى حمى ذلك الفلك المشحون.. أضمد جراحى وأربط على قلبى، وأعيد قراءة الموقف العصيب.. حتى يغطى الماء كل شىء أمامى، وتبيض عيناى من أثر الدموع.

أعيد التلاوة كل حين، والسفينة تجرى فى موج كالجبال، ويلتاع منك الفؤاد حين يخذلك « الولد » ويهجر مركبك، وتذروه الريح العقيم أمام ناظريك، ويضع أصابعه فى أذنيه، لا يسمعك وأنت تناديه مع نوح – الأب الجليل – والنبى الصبور.. (يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين).

لكن.. « الابن » يركب رأسه، ويجدف فى بحر الظلمات مع العاصين المتكبرين، يبحث عن جبل يأوى إليه يظنه «يعصمه» من أمر الله، ويحول الموج بينكما ويكون من المغرقين.

مثل نوح المهيب ينتابنى الضعف الإنسانى الجميل، وتشد قلبى مشاعر الحب والرحمة والرغبة فى إنقاذ الجسد الحبيب.

وينادى نوح ربه (ربِّ إن ابنى من أهلى) وتجىء كلمة الله

(قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) .

ويرتد إلينا النفس ، ونعيد تلاوة الآية تحوّل المشهد إلى طوق نجاة ، نرتفع به فوق ظهر السفينة ، وباسم الله مجريها ومرساها .. نجّانا الله برحمته من كيد الماكرين .

وتدركنا الصحوة .. يتيقظ منا الروح والفؤاد ، وتبرق أمامنا لحظة التنوير ، وتسطع ذروة الاكتشاف المنير ، هناك صلة أقوى من صلة الدم ، وصلة الرحم ، رابطة الدين وأخوة الإيمان ..

إن من يخالفك فى العقيدة ويترك طريق الهداية ويتبع خطوات الشيطان ، وينتمى إلى الملأ المترفين المتكبرين – ليس من أهلك – ولو كان ابنك من أحشائك أو من صلبك و « عمل غير صالح » أن تحنو عليه وتمدّ له حبال المحبّة والرحمة وتجامله فوق الحق ، وتحاول أن تحابيه .

إن أخوة الإيمان والمحبة فى الله ، وشيجة أقوى وأعمق وصلة أكثر ارتباطًا وقربًا ، والإيمان يتطلب منا النزاهة والاستقامة والعدل .. النظرة الموضوعية للأشياء والناس ، والحق أحق أن يتّبع .

وهو درس على أعلى مستوى إلى من يتولّون أمور الناس .. والذين ينظرون إلى صلات القرابة والوراثة والنسب ويقدمون ذوى قرباهم ويمنحون مكان الصدارة واستغلال النفوذ والانتفاع بالسلطان .

وتظلّ سفينة نوحٍ دائمًا الحقيقة والرمز، من يتّق الله وشاء أن يستقيم ويعمل صالحًا تكتب له النجاة ..

أما الذين يبغون فى الأرض بغير الحق، فيأتينا دائمًا نبؤهم .. تأخذهم الصيحة، ترهقهم المذلة، ويحيق بهم الخزى والخذلان .. يحيط بهم الطوفان ويكونون من المغرقين.

والسفينة الرمز أبدًا قائمة وموجودة وحاضرة .. مرفأ نجاة لمن يسلم وجهه لله وهو محسن، مركب ساطعة، مشرعة صاريها نحو السماء، ترمز دائمًا لأن تكون « جمعا » - لا أفرادًا شتى ممزقين.

وأن نحرص على أن نحشر فى زمرة المتقين.

- إننا أمة فى زورق واحد - علينا إدراك هذه الحقيقة .. والالتزام بالمصلحة العامة لأمة الإسلام، وجماعة المؤمنين ..

مركب - كأنها الحياة - رحلة مستمرة، دائمة الإبحار والعبور وباسم الله مجريها ومرساها.

صاحب الحوت

ومن منّا لم يفكر فى الهرب ؟

يدير ظهره ، ويدع كل شىء من ورائه .. يترك الهموم الجسام والمشاكل أو التعقيدات ، والمسئولية المتصلة بالناس . يهجر ويهاجر إلى بلاد أخرى بعيدة ، ومدن غريبة وجديدة وموانٍ موغلة فى البعاد والبحار .. يخرج كالآبق إلى الفلك المشحون ويسلم نفسه لنشوة الإبحار إلى المجهول ، يهرب إلى أرض الله الواسعة .. حيث لا يكون معروفًا لأحد ، ولا يعرف أحدًا . ولا يكون مطالبًا بعمل ما أو طرفًا فى مساومة ، وليس ضروريًا أن ينجز مهمة صعبة وعسيرة .

من منا لم يفكر - ولو مرةً - فى الهرب ؟

ولكن إلى أين ؟ كيف السبيل إلى الفرار والهروب المستحيل ؟

أنت كمن يهرب من الله إلى الله .

ستحمل نفسك معك أينما ذهبت .. كيف ستواجه صحبة ذاتك .. وتخلّيك المخزى .. وهروبك المزرى .. وتخاذلك السقيم ؟

ستتبعك عيون تدينك، ونظرات تسخر منك، وأيْدٍ كانت ترتفع إليك تطلب المعونة وتنشد المساعدة، وسيحيطك الهوان .. وخطيئة عدم الثبات والاحتمال، وتحل بك لعنة عمل لم تتمّه وواجب لم تؤدّه ..

وستجد الله حاضرًا (وإليه يرجع الأمر كله) ويوفّيك حسابك . (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) واثبت أمام الابتلاء، وأصلح من عملك؛ فلا نجاة ولا مخرج إلّا بالله (لا ملجأ من الله إلّا إليه) .

وكلنا يونس - الإنسان أو الرمز - نعيش عصرنا الحديث بين الخوف والقلق .. ورحلتنا بين أنواء الحياة، وعباب الصعاب هى نفس رحلته فى بطن الحوت .. كلٌّ منّا تشدّه ريح الشر إلى الهاوية .. ويستولى عليه الفزع واليأس أحيانا « نتهاوى » وحينّا نكتشف أن لا ملاذ لنا ولا سبيل إلى النجاة إلّا بالتوجه إلى الله والاحتماء بدينه القيم والاعتصام بالصبر والاستقامة والتقوى - كما أمرنا أن نكون - وبذلك يكشف عنا الله الضرَّ ويجعل لنا مخرجًا ونصل إلى شاطىء الخلاص .

الله سبحانه وتعالى - فى قرآنه المجيد - يقص على الرسول من

أنباء الرسل ، وأخبار القرى والأقوام الغابرين وما جرت به سنة الله مع عباده المصطفين - من البشر المرسلين - والأمم الظالمة .. ومأساة المكذّبين .

نوع من القصص تثبّت الفؤاد .. تجعله راسخًا فى ثباته كالجبل فى أداء مهمته ونشر دعوته ، ونكتسب منها العبرة والعظة ، ونتربى فى مدرسة ربّانية باهرة نتسلّح فيها بأعظم الخلق ، ونتدارس التجارب الرائدة ، ونشهد العروض القديمة لتراجيديا الصراع وكيف السبيل إلى أخذ موقف الحق والاعتداد بالنفس وجدوى التمثل بالأبطال الأنبياء .

إنه ميراث الأنبياء يصلنا بعزّة الانتماء وجلال المسئولية المتصلة بالله ، والعمل الصالح فى أرضه وساحة الاختبار والاختيار .

ونقلّب كنوز الميراث العظيم فنجد حلية الصبر التى اجتاز بها المرسلون والصالحون الشدّة والمحنة ، وصنوف الكرب العظيم .

الصبر يستعان به لجميع الأعمال العظيمة للفرد والجماعات .. فى المأساة الخاصة والعامة ، وجوهره الثبات وعدم اليأس وإعلان كلمة الحق والثقة بأن (أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

الله وجّه خطابه مباشرةً إلى الرسول :

(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) .

أرسل عليه الصلاة والسلام مبشّرًا ونذيرًا ، وهدًى ورحمة للعالمين .. ليس عليه أن يضيق صدره بالمكذبين ، ولا يحزن لمن تولّى

عصى فالله متمّ أمره ، وجرت سنّته فى خلقه – والذين خلوا من قبلهم – أن ينجى الرسل والذين آمنوا ويهلك الظالمين (**إنّ أخذه أليم شديد**)

يونس النبى قدوة ساعة الشدة ، ومثال للتسلح بالصبر والدعاء إلى الله .. والله مجيب .. فهو قريب ونصير نجاه من الغم (**كذلك حقًّا علينا ننج المؤمنين**) ونحن نتعلم من بعد الرسول – وعلى يديه – درس الاستقامة والصبر .. وعدم العجلة فى أداء الأعمال المكلّفين بها .. وعدم التعجل فى رؤية الثمار للدعوة ، أو استعجال النتائج أو الاقتراب من حافّة (اليأس) البغيض ، كى يكشف عنا الله سبحانه الضرّ ، وينجينا من اليأس ويحبط كيد المستبدّين .

قصة يونس – النبى البحرى – الآبق إلى السفين حكاية دائرية تبدأ بالذهاب « مغاضبًا » .. ثم الوقوع فى هوّة العذاب .. وفى عمق الظلام يتجلى الاكتشاف العظيم ، وتسطع لحظة التنوير ، ويرتد بصيرًا وتنفرج الأزمة ويتألق الحل القويم .

بناءٌ دائرىٌّ محكم يبدأ بذروة الموقف والانفعال ثم الهروب ، والصحوة والندم وتصويب الأداء والسلوك .

وتدور المأساة كل حين .. وكل دورة زمان واختلاف الموقع وتسمية الأقوام والشعوب .

ودائمًا نفس النهاية .. فقد كتبها الله حقًّا ، والعبرة أن نفيد منها ويثبت صداها فى الصدور ونتفهّم هدفها ومغزاها .

« يونس » ضاق بعدم استجابة أهل قريته.. ويئس من إرجاعهم عن الكفر والضلال، وضاق صدره، وفكر أن يدعهم على ما هم عليه ويفرّ بعيدًا عنهم.

فرّ إلى الساحل، يريد بحارًا تبعده عنهم وتفرق بينهم (**أبق إلى الفلك المشحون**) وما أن أبحرت السفينة حتى أحاط بها الموج وواجهتها ريح عاتية وعاصفة مزلزلة، أيقن ركاب السفينة أن معهم على ظهرها عاصيًا عتيدًا، ومذنبًا خطرًا، وحين وجدوه ألقوه فى اليمّ.. وكان الحوت فاغرًا فاه فالتقمه وقذف به إلى جوفه وابتلعه الظلام: ظلمة البحر وظلمة القهر وظلمة بطن الحوت.

واكتشف وسط دياجير العتمة أن لا فرار له من أمر ربه (**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّى كنت من الظالمين**).

وهى نفس تجربة « السجن » ليوسف الصديق.. الوحدة والوحشة والقهر، ولا أمل فى الخروج وانفراج الأزمة.. لكن لا ينقطع الرجاء من رحمة الله، وقدرته ولا كاشف للضر إلا هو – فيحوّل الإنسان وحدته إلى عبادة، ووحشته إلى تسبيح وذكر لله. وحالق اليأس من حوله إلى رجاء ودعاء بالعفو والحماية. ويستجيب العفو القدير.

إنه ابتلاء يجعل النبى « أمةً » والرجل « إمامًا » عادلاً تربّى من لدن الخالق أن يكون رحيمًا، عطوفًا ودودًا بالخلق أجمعين.. يوثق

صلته بهم، ولا ينى عن الاهتمام بهم.. والعمل من أجل خيرهم ودعوتهم إلى الصلاح والتقى. وهكذا يواجه الإنسان نفسه وسط تفاقم الأزمة.. ويتطهّر بالمحنة، وبعدها يعود صافيًا، محبًّا يأخذ الآخرين باللين والموعظة الحسنة ويمدّ لهم فى حبال الصبر والرجاء - هكذا عامله مالك الملك - القوى فكيف يضيق وهو العبد بالآخرين.

إنها معجزة البعث من جديد والنشور.

آية ألّا مهرب من حكم الله يأتى الله بنا جميعًا أينما نكون - يرقبنا ونحن فى بطن الحوت فى التيه.. وداخل بروج مشيدة وحصون - وعندما يكتب لنا النجاة والخروج كأنما بعثنا من جديد - ونعود ربانيين أتقياء وأنقياء. الهروب موقف لا يليق.

فيه خسران وخزى وأذى..

علاج أىّ موقف بالثبات والمواجهة والتصدّى للمعوّقات وقوى الشر، والمفسدين فى الأرض.. وكلّ من يبغونها عوجا.

يونس - المعجزة والرمز - هو كلّ داعية، أو مفكرّ ومصلح.. من له شهادة - يجب أن يؤديها -

مهما كانت دونها الصعاب، وبحار العذاب وسفن الخطاة والملأ المتكبرين؛ يجب ألا يزهق صبرنا، ونملّ أو نهرب.. أو نبرر قرار الفرار وخزى الهروب.

وننعى زماننا ونستجدى الإشفاق والمعذرة؛فقد حيل بيننا وبين

رسالتنا أو دعوتنا للخير.

ولم نتمكن من إعلان الشهادة، ونكتم الحق فى صدورنا ونولّى الأدبار نهرب.. نهاجر.. أو نأبق إلى فلك مشحون.

ستظّل اللعنة تطاردنا، والمعصية فوق رءوسنا.. لا مهرب ولا مفر..

قد يمكننا الابتعاد، والنجاة بهيكلنا الجسدى.. ولكن النفس التى يملكها الله علينا ستظل مؤرّقة محرّقة.. وآثم قلبك، يحيط بك الخزى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة يرد إلى أقسى العذاب. أيًّا كان موقعنا من الحياة.. وأيًّا كانت المواقف التى علينا اجتيازها مركبّة أو معقدة.

الحلّ ليس فى تجاهلها أو الهرب منها، والنجاة لا تكمن فى الفرار.. ومهما كانت الظروف صعبة وعسيرة فلا يمكن لنا كأفراد وجماعات أن نتخلّى عن أمتنا، وعن أداء مهمتنا.. عمّن يطلبون العون والغوث منا.. من ينتظرون كلمة، قولة حق، أو إيناس بالفكر والمعرفة.

إنها دورة مضنية – كقصة يونس – لابد أن نعود فيها من رحلة الغياب والهروب، والوقوع فى أسر السجن أو قلب الحوت.. لابدّ من الصحوة واليقظة والعودة إلى ساحل بلادنا، والعمل من أجل أهلنا وعيالنا.

نعود إلى بلدنا.. إلى ساحلنا الجدب أو النضير لا يهم أن تكون

قرية ظالمة، أو بلدة نينوى القديمة..

وأيّ من الأمصار تجرى من تحتها الأنهار.

المهم أن تتحقق معجزة الخلق فينا.. ونبعث بقدرة الله الحفيظ العليم نعود جديدين.. أقوياء محبّين.

والحق أحقّ أن يتّبع وأولياء الله **(لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)**.

سحرة فرعون

يقصّ علينا الحق سبحانه وتعالى – فى كتابه العزيز – من أنباء القرى ونبأ جنوده المرسلين.

ويلات الحروب والصراع والفتن، وألوان المعاناة التى تجرعها أتباعه المخلصون ؛ فكم من قرية ظالمة طغت واستكبرت ثم جاءها بأسه العظيم فدمرت، وأهلك الطاغين ومكّن فيها للمتقين وجعلهم أئمّة ووارثين حقا.

والهدف من القصص القرآنى ليس مجرد الإخبار أو العلم بأحوال البشر وعلم التاريخ.. لكنها قصص فنية محكمة فصّلت آياتها، وبرزت المواقف فيها فائقة مبهرة تدفعنا إلى التأمل والغوص لتمثّل المعنى والرغبة فى التسامى والارتقاء.

أحداث وشخصيات ومحن تصهر الذات، وتقيم النفس وتثبّت منّا الفؤاد والأقدام.

إنها لا تتبع طريقة السرد العادى وترتيب الأحداث، بل تبدأ من قمّة الموقف وذروة الأزمة فيه، ثم تصل بنا إلى لحظة الاكتشاف والتنوير.

تجعل اللحظة التاريخية لحظة إنسانية مشعة زاخرةً بالمعنى تنمى لدينا متعة الفهم والإدراك والقدرة على الاختيار..

إنها التطبيق العملى لأحكام القرآن، والأداء التمثيلى للمنهج والمسرح المشيد على أسس الجمال والعدل وحرية الاختيار. وبذلك يشعر الإنسان البسيط، والفرد العادى أن بوسعه أن يكون امتدادًا لجماعة المؤمنين الصابرين.. وأنه ليس مجرد « فرد » بل يمكن أن يكون « أمةً » جماعيته تنبع بمن ساروا قبله على المنهج واستقاموا على الطريق وأدّوا فريضة الجهاد.

مهمته فى الحياة موصولة بمسئولية أولى العزم من الرسل.

ويبدأ أحد فصول قصة موسى.. بقمّة الأزمة حدث مواجهة علنية مع فرعون وملئه المتكبرين وهامان وقارون.. ساحة فسيحة حشر فيها فرعون كلّ ساحر لديه عليم.. وتجرى المباراة فى « السحر » علنية وتحت أعين الجماهير.

كان فرعون وسحرته على ثقة من الفوز فى « اللعب »، ففنون الخداع والإبهار والتمويه أتقنوها من قديم..

فرعون يستعلى فى الأرض « ويتكبر فيها » - أشدّ من معصية إبليس - ويقول أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين.

وملؤه الأثرياء المترفون كانوا قوم سوء وسمّاهم الله المجرمين، وتفاقم غرور السحرة لدرجة طالبوا (**إنّ لنا لأجْرًا إن كنّا نحن الغالبين** ، فرعون (قال نعم وإنكم لمن المقربين).

يا الله منذ القدم ويستشرى بين الممالك ذلك الوباء اللعين، أن يقرب الملوك بعض الفئات ويكون ذلك أهم من الأجور والهبات ، المهم بدأت المباراة، واتفق أن يلقى السحرة.

(**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**).

ولكن تجلت قدرة الخالق (**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون**).

وأدرك السحرة أن هناك قدرة فائقة وخروا ساجدين معلنين إيمانهم، وكانت لحظة امتحان عصيبة، وزيّن لهم غرورهم بأنهم منتصرون فلما غلبوا .. فى هذه اللحظة المذهلة المهولة كادت تفقدهم توازنهم وصوابهم ومضت الحقيقة، وتوهج الإدراك بقوّة خارقة ليس كمثلها شيء، فتبدلت اللحظة من الخسران المبين إلى كسب أنفسهم واستلهام الحق وولوج عالم الإيمان الفسيح.

كسب موسى جولة المباراة الأولى .. واستبدّت بفرعون قوى الشر والغضب لم يتصور أن تفلت قبضته على زمام الأمور..

(**أخذته العزة بالإثم**) (**آمنتم به قبل أن آذن لكم**).

وهم هكذا دائمًا - الطغاة - منذ فجر التاريخ ينقلبون على

أنفسهم إذا ما استبدّ بهم الغضب - أو حدث ما لا يتوقعون - بدل التبسط والمرح ووعود الحظوة والمكانة لديه - بدأت قائمة الاتهام، وتصيد التهم والبطش بهم.

- إن هذا لمكر مكرتموه .

- إنه كبيركم الذى علمكم السحر .

- هى مؤامرة فى المدينة لتخرجوا منها أهلها .

- ثم أمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع الشجر ..

وانفض المولد.. وتقوّضت ساحة الألعاب السحرية .

وحزن موسى المنتصر ، وكتم المصريون ألمهم ودموعهم وتحصّنوا فى مظهر السلبية واللامبالاة وانصرفوا واجمين .

ولكن هل ينتهى الأمر عند هذا الحدّ لدى آل فرعون وجمعية المنتفعين بسلطانه وهيلمانه ؟

- هل ستترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويتركوا عبادتك وتأليهك .

وهل يغيب عن فرعون مثل هذا الأمر؟

قال لهم : مهلاً (وإنّا فوقهم قاهرون)

فهو يدبر لهم ما هو أشدّ من الاضطهاد العام والقتل.. سيقتل أبناءهم ويدع نساءهم تحيا.. وتكون فئة مقطوعة المستقبل والنماء، تحيا بذلة وخنوع.

وفى المقابل لم يفعل مرسى ولم يقل لقومه إلاّ (استعينوا بالله واصبروا).

تبدو المسألة غير متكافئة.

هذه الخطة الجهنمية تعدّ لهم.. ومكر السوء يحيط بهم، وهم قد أوذوا من قبل أن يأتيهم ومن بعد أن جاءهم.

ولكن الصبر هو اللبنة الأولى فى مدرسة الجهاد المقدس..

وهو الدعامة على طريق الاستقامة والنضال على المستوى الخاص والعام.

الصبر: هو النغمة الأساسية لتدريبات القوة والتفوق وتمارين كمال الإنسان.

كل الشعائر الدينية تقود إليه وتتطلبه: الصلاة والصيام والقيام.. لكنه الصبر الخصيب الذى يستقوى به الإنسان على الشدائد ويواجه المحن.. ويطهر نفسه ويعد لكل أمر عدته ويتدرب به على الصمود والاحتمال.. الصبر راية الشهادة، وسلاح الشهداء وقد قال السحرة لما آمنوا وواجهوا الصلب والتقطيع (ربنا أفرغ علينا صبرا) وقد يفسر هذا حكمة المصريين القدماء.. الذين تحصنوا بالصبر طويلاً وغنّوا له المواويل ووصفوه تعويذة شفاء لأجيالهم وأحبائهم.. كانوا يحرثونه فى الأرض، ويحصدون ثماره، ويؤمنون قبل الرسل والديانات بإله خالق قدير هو « الزارع » الباقى القديم لكل الخيرات.

وقد تفسر تلك الحكمة التلقائية « الصابرة » موقف عامة المصريين فى مباراة السحر العظيم، زمن فرعون وموسى..

موقف استعصى على الدارسين والراحلين المرتحلين - فى القرآن الكريم - لدرجة أن زميلاً طيبًا - بالغ المكر والذكاء - قال ما معناه أنه شديد الخجل من أجداده المصريين القدماء حقا هو يعرف أنه ليس عليه وزر عملهم لكنه تاريخيا وجدوديا يشعر بخجل وعلى استحياء!

حضروا حفل الحوار بين موسى وفرعون، والمباراة الكبرى بين السحرة ونبى الله، وظلّوا - صامتين - حتى النهاية.

وبعدها لم يتخذوا موقفًا، ولم ينصروا موسى على فرعون.. ولو بالإشارة أو حتى تقبل العزاء فى « سحرتهم » الذين تحولوا فى لحظة إلى شهداء صامدين وأبطال.

تولّوا - صامتين - كأن الأمر لا يعنيهم، ولم تكن المسألة لديهم سوى فرجة انتهت عند هذا الحد وليسوا مدعويين للتفكير.. أو التأمل أو الإيمان، أو مناقشة ما جرى أمامهم من أحداث.

ولكن هذه هى حكمة وعبق شخصية المصريين القدماء وكل حين سر هؤلاء الفلاحين العظام الماكرين يبدون عدم الاهتمام واللامبالاة لأنهم يدركون فى لحظة - أن القوة ليست فى جانبهم فى ذلك الوقت - وأول شارات النصر أن تقدّر قوّتك ومدى قوّة خصمك حتى تعدّ نفسك وأسباب قوتك.

أدرك المصريون فى ذلك الزمان أن الأمر يستلزم منهم الحيطة والصبر والإعداد لذلك يسبحون فى شعور الغفلة - التمثيلية - ويمتعون نظرهم بالفرجة ، كأنّ الأمر لا يعنيهم ولا هى بلدهم ومستقبلهم وبنوهم حتى تحين الفرصة ، ويتكاتف الجميع ثم يهبّون هبّة رجل واحد..

موسى يطلب من قومه - بأمر الله - الصبر والمصابرة حتى يأذن الله لهم بالخروج ، ويغرق الطاغية أمام أعينهم ، ويصبح عبرةً على مدى الأجيال والعصور.

ولكن دون ذلك كفاح طويل..

وتحسين فى العمل والأداء ، وصبر مضن ،وعمل دائب كتوم.

وذكر لله واستعانة به وتقرب وطاعة لأوامره ونواهيه.

والمصريون - كعاملين فى الزراعة - رضعوا الصبر والمعاناة ومعالجة الشرور والآفات فلزموا - بتلقائية - ذلك النهج الحكيم.

وفى ماضيهم القريب والبعيد ، كانوا يعزلون ظالميهم ومستعمريهم .. ويظلون كالنحلة الشغالة يفرزون تلك المادة العازلة بينهم والطغاة حتى يسقطوهم تمامًا من عرش قلوبهم ، ومن مسرح الحياة .. وقد رأوا ما أحدثه فرعون فهل كان من الحكمة زيادة عدد الضحايا فى هذا اليوم الأسود الحزين ورأوا رأى العين - كيف يأتمر الملأ بموسى.

وعندما تجاسر رجل رشيد من بينهم وتساءل ببساطة ..

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله)

وكيف هاج فرعون وماج، وعدّ ذلك تطاولاً، وأن الرجل تجرّأ على الحمى والسلطان وغضب أن يشير واحد من الرعية إلى أساليب المنطق والقياس الصحيح .. وسفّه رأيه على الملأ وهدّدهم جميعًا وأعلن (**ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**).

كل هذه عظات ودروس مستفادة كانت تعمل فى وجدان الشعب وعقله وتمدّه بأسباب اليقين والإيمان وتشير إلى طريق العمل الصالح.

إلا إبليس

وتتنزل علينا قصة الخلق الأوّل، إرادة الله أن يجعل فى الأرض خليفة .. وماذا كان فى اللحظات الأولى من البدء.. قصة لا مصدر لها إلا الخالق سبحانه.

مخلوق من طين .. قيل له كن فيكون، ويعلّمه الله الأسماء وينفخ فيه من روحه ويهبه عقلاً وحكمةً؛ ويزوده بحرية فسيحة ويمدّ له فى التجارب والاختبار.

هو النغمة الأساسية فى لحن الوجود، وكلٌّ مسخَّرٌ له ومن أجله.

وعندما تتفتح أعيننا، ويعمل الفكر فينا .. ويستبدّ بنا السؤال .. كيف جئنا وما حكمة الخلق فينا؟ وتلك الرحلة المذهلة لنا على الأرض – فيها نحيا وفيها نموت، ومنها نخرج بإذن الله – نجد تلك

القصة الملهمة بين أيدينا.

تتلو علينا نبأ الخلق، وتثبّت منا الفؤاد.. وتذكرنا وتصل بنا إلى قمّة المعنى والهدف..

هى المسرحية التى أعيد الحدث الرئيسى فيها كثيرًا.

وتجسّد لنا الموقف من كافة أبعاده وزواياه.. وتستبدّ بنا نشوة الإبهار، والإعجاز الفنى المحكم، ونتابع ذات الموقف؛ وكل شهوده والخالق القيوم والأبطال ووحدة الزمان والمكان.. لكن فى كل مرة يضاف جديد ويسطع الموقف، ويتضح أكثر ويتجسد من زاوية أبعد..

إنها المسرحية الدائرة منذ البدء..

والعرض مستمر وإن تغيرت الأسماء والأشخاص والمواقع والعصور لكنها ذات القصة والصراع الدائم، والأزمة وتطورها والوصول إلى القمة والنور..

بداية درامية.. تبدأ من قمّة الحدث معجزة الخلق، وعداوة الشيطان وذلك الصراع الأبدى ويوفّى كل منا حسابه.. ماذا كان موقفه من الإغواء وكيف كان أداؤه على مسرح الحياة؟

سجدت الملائكة لأبينا آدم إلا إبليس أبى واستكبر.

وأجاب عن ذلك:

أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين.

أضاع نفسه بحمقه وغبائه، وتحصّن فى كبرياء زائفة زينت له

سوء عمله إذ تأبى أن يسجد لمادة هي من وجهة نظره . دون خلقه .
ونسي المأفون أن الله سبحانه وتعالى خالق النار والطين هو الذى أمره .. خطيئة إبليس تكمن فى « الكبر » جعلته من العصاة الضالين ، وجلبت عليه اللعنة طرد من الجنة إلى الأبد (**فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها**) الجنة ليست مأوى .. « للمتكبرين » .
والذين استكبروا فى الأرض تحيط بهم نفس لعنة إبليس .. ولا يدخلون الجنّة ولهم عذاب مهين .
وكان عقابه يتضمن أيضًا أن يخرج من الجنة (**وهو من الصاغرين**) أى يحيط به الصغار والذلة والهوان .. هنا تكمن المفارقة .. عقوبة من نوع العمل ، تأبّى واستكبر ووقع بذلك فى خطيئة العصيان وطرد من الجنة .. لكنه يتعذب – فى انتظار العذاب – بالضعة والهوان والمذلة .
كذلك الذين يستكبرون يحيط بهم الخزى فى الحياة الدنيا وفقدان العزة والجلال ، وتهجرهم المهابة والثقة بالنفس وتتلو فى القرآن نبأ الذين استكبروا قوم نوح ..
وشعيب ولوط وملأ فرعون ، وقارون وعاد وثمود .. استعظم قارون وقال (**إنما أوتيته عن علم**) ودخل جنّته وهو ظالمٌ لنفسه فمادت به الأرض وابتلعته مع قصره وذهبه وغروره .. ومع ذلك لم يتّعظ فرعون اللعين ..
لم يتأمل الموقف .. ويتراجع عن غيّه وكبريائه ، بل لقد طاول

إبليس نفسه فى الخطيئة وفجر عنه.

لم يقل إنه خير من المخلوق .. بل تحصّن بصنعة الله وحسن خلقه فى الدنيا وقال: (أليس لى مُلك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) لذلك جعله الله عبرة للعالمين، وأغرقه ومن معه أجمعين، وتوعّد كل الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق.

يقول الإمام متولى الشعراوى: «إن الذى يقدح فى قضية دخولنا إلى السلم كافة.. واتباع جميع مبادئ الإسلام: هو الشيطان..

لذلك جعل الله قصته مع آدم مناعةً لنا وتحصينًا من شرّه إذْ إن عداوته مسبقة، وموقفه مع ابينا آدم كان يجب أن ينبهنا لنحذره» ..

خصوصًا وقد أقسم بعزة الله أن يغوينا أجمعين .. ويقعدن لنا على الصراط المستقيم ويأتينا من كل ناحية..

وقد نبهنا الله سبحانه لهذه العداوة والبغضاء، وأعاد علينا القصة .. وروى لنا الحدث من كل جوانبه ومع ذلك - تعمى القلوب والأبصار - ونجد أكثرنا يتبعون خطوات الشيطان!!

والله الرحيم الخالق بعد فترة التدريب لآدم وزوجه، عرض علينا تجربتهما المريرة بإغواء الشيطان لهما.. وجاءنا من منطقة الغرور إذ زين لهما أن الله حرم عليهما الشجرة كيلا يكونا ملكين.. أو يصبحا من الخالدين؛ وكان الخطأ بالانصياع إليه (فبدت لهما

سوءاتهما) وندما واستغفرا لذلك ، وهبطا إلى الأرض ساحة الامتحان العظيم ..

كل لحظة فى حياة الإنسان هى مجال للاختيار ، ودرجة فى الامتحان .

والله قد أنعم علينا بالعقل وهدى إلى الدين ودلّنا على المنهج والطريق .. إن الحل والمخرج أمام أعيننا (لباس التقوى) لباس التقوى هو الذى يدارى السوءة حقًّا ، ويحمى عوراتنا ويقينا شرّ الكبر والغرور .. والمشى فى الأرض مرحًا ..

الدرع الواقى من الذلّة والمهانة ، والاستعلاء على الناس وبذل ماء الوجه فى التقرب ممن نظنّهم أقوياء أو قومًا مستكبرين .. كلما صغنا أنفسنا بالدين .. والتزمنا الطريق المستقيم .. وكانت حركتنا فى الحياة صدقًا وحقًّا ونزاهةً وتعففًا .. كسبنا أنفسنا وارتفعت مكانتنا ، وسطعت حولنا العزة والكرامة ..

والشيطان له حيل كثيرة ، وفنون خداع وتزيين لعمل السوء والجهر به إنه يرتدى أقنعةً كثيرةً .. ويأتى متخفيًا بأهواء النفس وعيوبها ، ويوسوس فى الصدور وينفث الحقد والغلّ ويمتطى صهوة المغرورين . يقول الإمام محمد عبده : « على الإنسان أن يلتفت إلى خواطره ويضع لها ميزانًا » ..

لكنّ حدود الله واضحة ، وكلّ أحكامه وضعت من أجل خير الإنسان والحياة ..

علينا أن نطهّر أنفسنا من مسّ الشيطان اللعين، ولا نجعله يزيّن لنا الغرور والكبرياء فهما أصل الشرور.. وأن ننصرف عمّن يستكبرون. ونجاهدهم، ونقف فى جانب الحق مهما جرّ علينا من ويلات المعاناة والشقاء؛ ليس أمامنا سوى حزبين: حزب الله وحزب الشيطان..

والحرية مكفولة فى الانتماء والدعوة عامة، والاختيار حر، والحلال بين، والحرام معلوم.. والنتيجة واضحة.. والنجاح والنصر مكتوب لمن يكسب نفسه فى الصراع، ويحسن عمله وينضم إلى جماعة المؤمنين الأعزاء..

وقد أنهى الله سبحانه وتعالى الموقف فى قصة آدم وإبليس فى كلّ مرّة أن (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

صعدنا إلى لحظة التنوير فى المشهد وقمته.. طريق الصلاح والتقوى والعمل الصالح..

بعد ذلك لا خوف ولا حزن.

وجاءت بصيغة الجمع لأن الإنسان فيها لا يكون فردًا؛ بل تعود إليه وحدته مع الجماعة، وتتألق جماعيته وسط جموع المؤمنين.

حوار داخلى !

ما تلك الموسيقى العذبة تنبعث من الداخل ؟ ها قد اختلفت النغمة ، واكفهر الإيقاع ، وكأن جوقةً من الشياطين تتناطح وتقود العزف المجنون .

وما الحوار الذى يدور ؟ .

نخلو مع النفس ، نتجوّل فى الأسواق وسط الزحام نسير .. دائمًا يرتفع ذلك المنولوج الداخلى الغريب !

يصل إلى البئر الخفية فى النفس ، يلمس المياه الجوفية العميقة .. صوتان يسكنان داخلك .. ينشب بينهما دائمًا عراك وحوار .. يقولان لك : « افعل ولا تفعل » فى نفس الوقت ..

أحياناً يشتدّ الصراع ويضطرب العزف بين متناقضات .. وتحسّ

بخطورة القفز فوق أسلاك شائكة ومتشابكة أعدّت لك.. حتى ينتصر، أحد الصوتين وتتم عملية الترجيح وتصل إلى مرحلة الاختيار، هنا يعود اللحن رائقًا شجيًا.

وكلّ إنسان فى كل لحظة من الزمان عندما يوازن فى نفسه أمرًا يحسّ وكأنّ الأمر عرض على مجلس شورى فى الباطن..

وأنه قد نشب على الفور نزاع.. ألقى برأى وقامت معارضة تفنّد ما يقال، وتسوق الحجج والبراهين..

يسرى فى الداخل على الفور تياران: أحدهما يجذب إلى جانب الحق، والآخر يصدّ عن اتباع الطريق..

مجلس شورى خاص وذاتى.. ينقسم بين دفاع وهجوم.. دفع وصدّ؛ ومهما كانت صيغة النزاع جسيمة أم هينة.. قضية حياة أم فك اشتباك بسيط..

فهناك فى المجلس، طرفان يعملان بهمّة، ويصيغ كلٌّ منهما المقدمات ويرتّب عليها النتائج ويقدّم وجهتى نظر متعارضة تمامًا ومتوازية..

ومن الطريقة التى تتبعها أمام مجلسك.. وتيقّظك لكلّ مفردات الجدل والنقاش..ثم الأسلوب الذى تحدّد به انتصارك لأحد الطرفين.. كلّ ذلك يعطى صورةً صادقةً فى النهاية من أنت؟ وما هى وجهة نظرك التى تطلّ بها على الأشياء والحياة.. وحقيقة الموقف الذى تتخذه.. وقيمة عملك فيما تعمل.

ومن المدهش حقاً والمثير للعجب أن الأمر كلّه قد يعرض ويحسم في سرعة البرق .. وقبل أن يرتد إليك طرفك .

- وكأنها إحدى العمليات البيولوجية فى الجسد.

وهى عملية قد مارستها وتدربت عليها وأصبحت من قوام النفس ونظامها الخاص، ولكنها تحدّد الأسلوب والطريق.

وقد يضيع الإنسان ويثقل ضميره بكثرة الخطايا والآثام حتى لا يستفيق ويكتم ذلك المنولوج الدائر الملعون؛ وقد يبدو متردّدًا حائرًا متأرجحًا دومًا بين صوت الحق ونازع الباطل .. وبذلك يفقد اتزانه وسلامه مع نفسه، ونفعه لمسيرة الحياة ذاتها. والعاقل من يمسك بزمام الأمور داخله، ويجعل ذلك الداخل نظيفًا مشرقًا .. ويقود الحوار ويثرى الجدل ..

وينفتح أمام الحلول الصحيحة والحقيقية التى يثيرها والمشكلات .. ويغلق كلّ نوافذه لصوت الشيطان الشرير الذى يضمر له الغواية والخذلان.

والشيطان هو أصل الشرور .. هو الأساس فى ذلك الصراع الفائر، والحوار المحتدم والتناقض بين القول والحركة .. بين ما يبديه الإنسان وما يخفيه ..

وأصل الحكاية تمتدّ إلى نقطة البدء ..

عندما خلق الله العظيم الإنسان - فى أحسن تقويم - ووهبه علمًا وحكمةً، وميّزه بقوّة التفكير عن سائر الكائنات، وجعله يفرض

عليها سيطرته وإرادته..

دانت له كلّ المخلوقات بالخضوع .. إلا «إبليس» أبي واستكبر لذلك فالصراع معه منذ بدء الخليقه مرير، والإنسان فى معركة دائمة معه.

أمام الإنسان طريقان لا ثالث لهما.

الطريق المستقيم، وطريق الضلال .. أمامه حزبان - مهما تعدّدت البرامج والأيدولوجيات؛ حزب الله وحزب الشيطان.

معركة شرسة مستطيرة .. ذلك الشيطان متمرّد وعصى - يوسوس فى النفس ويوغر الصدر، ويغرس بذوره السوداء الشائهة ويدعوك للتكبر والعناد والغرور..

هو جنّى مستكبر، يرى قمّة عمله الشرير هو غواية ذلك المخلوق الإنسان - الذى يعتقد أنه أفضل منه - وهو لا يستحق علوًّا فى الأرض ولا خلافة..

انتبهوا..

ذلك اللئيم الخنيس يعشش داخل النفس.. أحد الصوتين.. تسمعهما باستمرار - لكنه رذيل خسيس يزعق ويصيح ولا يتبع الأصول المرعية فى الحوار والحديث..

يعزف على كلّ الأوتار الضعيفة والمستهلكة داخل الإنسان.. ويزيّن له «سوء عمله حسنا» وينبش فى الجروح والآثام والأحقاد..

لكن الله العادل الرحيم لم يتركنا نهبًا للصراع .. ألقى علينا أمانة المسئولية والحرية بوسعنا أن نختار، ونهتدى بالعقل إلى الطريق الصحيح .. إلى نور الحق والعدل ..

وزوّدنا بفطرة سليمة نميّز بها الخطأ والصواب ..

وغمرنا بفضل من عنده بهداية الدين، علّمنا الكتاب والحكمة، وأودع روحنا ذلك النور الإلهى الذى يهدينا سواء السبيل ويمكّن لنا بلوغ كمالنا الإنسانى المنشود ..

فتظهر حكمة الله فينا، ونستحق أن نكون خلفاءه فى الأرض .

يمكّن لنا .. فى عملنا اليومى والبعيد .. فى جهادنا مع الواقع .. ومع النفس ..

عندما نهمّ بأمر فيه وجه للحق ووجه للباطل أن نعرض الأمر على مجلس شورى داخلى مستنير، يقول قولة حقّ .. لا ينافق ولا يبرر ويصدر قراراته عن إرادة خير تلزم بالاستقامة والنقاء وحسن الأداء .

نحيله إلى « مجلس ثورى » مزوّد بهداية الدين .. وبحصيلة خبرتنا من العلم والمعرفة ويقتدى « مسيرة » الأحرار والصدّيقين والنبيين .

– وبرغم أنه عمل ذاتى باطنى وخاص إلا أنّه المحرك الحقيقى لحركة الإنسان .. وهو « الموتور الروحى » الذى يحدّد موقفه .. ويعدّ « نواة مشعّة » تطلق قوى الخلق والإبداع وتبثّ تيّار الوعى فى المجتمع .. فيعلو البناء « كالبنيان المرصوص » .

ويعود العزف «الفردى والجماعى» مؤثّراً وموحيًا.

فلننصت جميعًا لتلك الموسيقى العذبة تعمل بيننا، وليرتفع الحوار ويتفتح من جديد.

فضيلة الحوار

نعود مرةً أخرى للصغيرة الجميلة، وأسئلتها الغريبة المشدوهة وحدقاتها المتطلعة إلى آفاق المعرفة.. تسع الكون والوجود وقصة خلق الإنسان.

أطفال عصريون - ليسوا مثلنا - وكما يصفنا شاعر منا معذب مهجور - ومثلى منفى على الورق - «أتذكرين .. سعداء كنا قانعين بذلك القصص الحزين».

أطفالنا يريدون ليعرفوا فى بداياتهم منشأ الكون ، وأصل الأشياء جميعًا .. وجواب الأسئلة الخالدة دفعةً واحدة .. كيف ولماذا ولم ؟

فى هذه المرة - لم تأخذنى الصغيرة على غرّة - أنا التى استدرجتها ، وشددت انتباهها يمكننا التعلّم كثيرًا فى مدرسة الطفولة

النضرة، وننهل من نبع النقاء والطهارة والفطرة السليمة.

يخطئ من يستهين بالطفل .. يعبره ككائن صغير، فهو إنسان فى مشرقه إنسان المستقبل.

يجب معاملته باحترام واجب وتقدير عميق .. ورؤية مستقبلية لتطور حياتنا .. والطفل إنسان كبير لأنه برىء حرّ .. نقىّ، ومترع بالوعد.

لأنه كلمة الله وفطرته السليمة لخلقه، والقدرة المبدعة لقوى الفهم والعقل والاكتشاف .. وليظهر حكمة الله فينا.

صغيرتى أجرّب معها الطريقة التى اكتشفتها أو التى ساعدتنى هى على اكتشافها .. أجيب عن سؤالها بأقصى ما وصلت إليه من إجابة.

آخر ما عرفته عن طريق العلم والفلسفة وهداية الأديان .. إجابة بارقة جريئة .. غير مبتورة ولا مرتعدة أو واجفة، والغريب أنها ترضى، وتقتنع وكأنها وجدت ما تبغى .. وتلك أيضاً وسيلتها إلى المعرفة! حتى لتبهرنى ماذا يمكن أن يدور بعقلها؟.

ماذا يعتمل فى الداخل تماماً؟

يبدو أن هؤلاء الصغار العظام قد أتوا إلى العالم مزوّدين بقدرة فائقة على التعلّم والاستيعاب، بفطرة سليمة ترنو إلى الأسماء كلّها والمسمّيات كما علمها الله لأوّل خلقه آدم عليه السلام.

وليعيدوا مجد الإنسان على الأرض .. الخلافة .. وليهبوا الحياة

بهاءً وجمالاً .

فى هذه المرّة أنا التى دعوت الصغيرة إلى الحوار والجدل .. كنت فى حاجة لأن أثير معها كلّ الأسئلة المتأجّجة .

تعالى يا بنتى وشاركينى المتعة المقدسة .. نستعين على الحياة بالصبر والسؤال .. نرفع وجهنا وأكفّنا إلى السماء وندعو .. وسنجد برهان ربّى حاضرًا .. سلى ما شئت .. وستجدينى إن شاء الله من الصابرين .

« أقرأ » لك .. يحدثنا الله العظيم فى كتابه .. ينير لنا الطريق .. ويثبت أقدامنا .. تعالى نكمل قصتنا المجيدة .

– كنت والحق يقال أريد أن أصل إلى « إبليس اللعين » – أصْل الشرور والمعصية – حسبت أنها تتوقف بلا شكّ أمام ذلك الآبق المتمرد ، حين أبى واستكبر ؛ وتسنح الفرصة لأن أحذّرها منه .. وألا تخضع لوسوسة الشيطان – من الجنّة والناس – وأعلمها كيف يقوم ناس بعمل الشيطان وينشرون الغواية والضلال .. كان هذا ظنّى أو حسن ظنّى بها .

وما أن تلوت : (وإذا قال ربك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) .

ولم تدعنى أكمل :

انقضّت علىّ مستهولةً : (وهل يقدر الملائكة على معارضة الله هكذا ؟) سبحان الله عمّا يصفون ! وفتحت أمامى ساحة الدهشة

والتعجب والسؤال الاستنكارى الغريب.

وفتح الله علينا بمثال مبسط.. يوجد أب جليل مهيب نعرف عنه الحكمة والعدالة.. تصرّف فى أمر على نحو ما.. قد يبدو وقعه غريبًا ومثيرًا للحيرة.. ربّما عجز الأبناء عن معرفة الحكمة فيه.. وربما منعهم الأدب والحياء من السؤال. ويدرك الأب الحنون حيرتهم - حتى ولو لم يفصحوا عنها - ويأتيهم عطوفًا متفهّمًا.

يحكى لهم الحكمة من وراء تصرفه وموقفه. يمكن بدء حديثه من قاعدة أنهم ألقوا السؤال فعلًا، وخاضوا فى العجب الذى استولى عليهم.. ثم يتولّى المسألة بالشرح والتحليل وبيان ما غمض عليهم.

الله العلى القدير ضرب لنا ذلك المثل من الحوار والمناظرة ليجسّم لنا المعنى ويجعلنا ندركه فى صورة محسوسة.

والله فى عظمته وجلاله يرتضى منا السؤال دومًا ويفترضه.. ويدعونا إليه ويقدّم لنا الدليل والبرهان حتى تطمئن قلوبنا.

وكلما أنصتنا له فى كتابه العزيز، نجده يدير معنا حوارًا باهرًا يدعونا للتأمل والتفكير وإعمال عقولنا، والارتفاع إلى نوره.

حتى لقد رفع موسى إلى مستوى الحوار المباشر معه.. واجتاح الشوق موسى وهتف: ربى دعنى أراك.

ويحدد للنبى الإجابة السامية.. يسألونك.. قل والله هو القائل القادر.. وليس كمثله شىء، عندما تستبدّ بنا الحيرة نتطلع إليه.

هو يريد إخبارنا بالمعنى الكامن من وراء هذه القصة بالهدف العظيم.. علوّ مكانة الإنسان.. وتفضيله.. وخلافته فى الأرض.. حتى إن الملائكة النورانية المطهرة ليأخذها العجب من هذه المكانة وتودّ بيان حكمته.

ويحسم الله الأمر كله بـ (إنّى أعلم مالا تعلمون) جواب مقنع.. وإثبات لعلم الإنسان وميزته.

كان من الحكمة تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامى.. ونموّ الفعل المباشر، فيه نموًّا عضويًّا على هيئة «حوار» ليصبح بمثابة تيّار من الوعى يمسّ منا الفكر والوجدان لنغوص وراء المعنى، ولنتبين إمكانية أن نحقق السموّ والارتقاء.

الله خلق الإنسان، ويعلم حقيقته.. تلك الروح المتأججة لديه فى البحث والمعرفة.. يطلب منه أن يتدرّب على الحوار والتفكير.. حتى يصل إلى يقين ويضرب مثلاً للرسول أن يصبر على جدل المشركين ونقاشهم.

إنه الدرس الغظيم يعلمه الله لنا.. نتمسّك بحرية التفكير.. والتعبير حتى فى شئون الكون والخلق.

بدأت حوارًا مع نفسى.. حقا العقل والكلمات هى الميزة والحرية والمسئولية.. هو الذى يصل بنا إلى الله.. إلى الإيمان.. يرفعنا سبحانه – رب العزة – إلى مستوى الحوار معه.. فكيف نلغى ذلك الجزء المقدس من خلقنا، أو يسلبه أحد منا؟ كذلك خلق الله

الإنسان ناطقًا وقال له « اقرأ ».. وتعلم بالقلم وعلّمه ما لم يعلم.. المسيح كلمة الله، وموسى كليم الله، ومحمد معجزته القرآن « كلام الله » ولابدّ من الحوار.

الحوار مع نفسك، وبينك والآخرين .. ومع الله وأنت تقرأ كتابه المجيد.. هكذا فضّلك وخلقك، وجعلك خليفةً. لا تطفئ ذلك النور أبداً، بذلك تكون قد أثمت وضللت ومن الهالكين ولا تدع الظالمين ليريدوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

إذا كان الله العظيم يثير فينا حوارًا، ويعلّمنا أدبه ويدرّبنا عليه ويأخذ بيدنا إلى نور الهداية بسوق الحجة والأدلة والبراهين.. فكيف لا ندير حوارًا مع من يتولّون أمرنا؟.

كيف لأناس تجبّروا وعتوا.. لا يريدون لصوت أن يرتفع؟ يرفضون ما أحلّه الله لنا.. ما كرمنا به.

الحاكم المستبد يفرض الصمت والخوف.. يمقت كلّ الأسئلة.. يسمع صوت نفسه خضوعًا وذلّة.. تتولّى العزف جوقة المرائين والمداحين والمتزلّفين.. يتقيئون نشيدًا واحدًا.. مهانة وخذلان.. توقّف الحوار الخصب.. تحرّقت العقول.. وتصبح أمة من الهالكين.

الحاكم المستنير، بالحوار يهتدى.. يستمع إلى صوت شعبه.. حديث البسطاء، ينصت إلى غضبتهم.. ألمهم.. حيرتهم، قلقهم.. يدير حوارًا مباشرًا مع الجماهير..

خلال الحوار تتّضح كثيرٌ من الحقائق.. من الأخطاء.. تبرق فكرة جديدة.. تنطلق تلك الشرارة المقدسة ويهتدى القوم إلى الصراط المستقيم.

قولاً ليّناً

١

(هل أتاك حديث موسي. إذ ناداه ربّه بالواد المقدّس طوًى. اذهب إلى فرعون إنه طغى)

تعالوا نتأملّ واحدًا من المواقف المشحونة فى قصة موسى عليه السلام .

أرسله الله (إلى فرعون وَمَلَئِهِ إنهم كانوا قومًا فاسقين)

حدث التكليف الإلهى ، ونودى فى الوادى المقدس .. فى البقعة المباركة من الشجرة (ياموسى إنى أنا ربك ..) ، (وأنا اخترتك) .

آنسه الله .. وطمأن قلبه .. وأنزل السكينة على نفسه – أقبل ولا تخف إنك من الآمنين – واستجاب الله لطلبه ورجائه – أعطاه

سؤله – وبعث معه هارون أخاه يشد به أزره، ويشركه فى أمره، ويسانده فى العمل العظيم..

وأفاض الله عليه من نوره وحضوره.. ووعده – ووعد الله حق – أنه سيكون معهما «حاضرًا» يسمع ويرى، وأكد له أنه الأعلى، وهو منجيه ومؤيّده بنصره.. وكل ما سيلقونه أمامه من سحر (إن الله سيبطله)

ترفقّ به المولى عزّ وجلّ وكلّمه – بصيغة المستقبل – المفعمة بالأمل والنور وروعة التجلى والفوز الأكيد.

«سيبطل» كلّ فنون خداعهم وسحرهم، ومكر السوء لديهم؛ فى ذلك الحرف «س» تكمن المعجزة، والقدرة.. والرضوان، وشفافية الرؤية حتى المستقبل.. وإلى الدرجات العلا

٢

وتأكيد للغلبة والعزّة والنجاة وهى حق لدى الله لرسله والمؤمنين.

صيغة تضمّ الزمن جميعًا، وتجعله «حاضرًا»

تمتدّ الرؤى بين الماضى والحاضر، وتبحر إلى أفق المستقبل البعيد والقريب.

الله سبحانه وتعالى يعلم أن لا فائدة ترجى من هداية فرعون.. ويعلم أنه لن يهتدى أو يلين فله قلب جبّار عنيد، وهو الذى وصفه بقوله:

(إن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين)
ومع ذلك طلب من موسى وهارون أن يقولا له (قولاً ليّنًا) .
يوفد رسوله إلى طاغية مستكبر ومن المفسدين .. ومع ذلك تصدر له الأوامر أن « يصير الحديث بالرفق واللين ، وعذوبة المنطق ، وتبيان الأدلة والبراهين » !
بل يمدّه بأصول ونماذج لأسلوب الحديث ، وصيغة الحوار المتزن الرصين .
(فقل هل لك إلى أن تزكّى . وأهديك إلى ربك فتخشى)
(قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) (الله الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً) .
كان يعلم سبحانه وتعالى أنه لن يستجيب .. سيدبر وينفر .. ويزداد غلًا ومقتًا .. سيزين لنفسه سوء عمله ، ويصدّ عن السبيل ..
سيجمع حوله الحشود ،وينادى بأعلى صوته ، ويجهر بالسوء ..
بل ، ولقد تقرر مصيره وتحدّد ، كتب الله أن سيجعله عبرةً للعالمين ..
إلّا أن ما يهمّ حقًّا هو هذا الدرس العظيم من أدب الحوار ، وفن التعامل ..
وطريقه الأخذ والرد ، واستخدام كافة السبل والوسائل

المشروعة فى طريق الجهاد .. علم وفن نأخذه من القصص المحكم .. وفصلت لنا آياته .. وتبهرنا معانيه ؛ تدريب على اللياقة النفسية والذهنية لتحمل المسئولية ، وحمل الرسالة ..

تعليم للنبىّ وللولىّ ، وللإنسان العادى كيف يضع المبادئ والقيم موضع التطبيق . يصير هو وأسلوبه شيئًا واحدًا .. هو والدعوة الحق كيانًا واحدًا ..

لا انفصال شبكى بين ما نؤمن به ، وطريقة سلوكنا .. وأسلوب تعاملنا مع الآخرين . غرس للأسس الأصيلة فى مسيرة الجهاد .. والالتزام بالحق ، واختيار موقف العدل والحب من أجل الجميع .

٣

فن إقامة الدين ، والالتزام بهؤلاء الكلمات من عند الله . وذلك ابتداء من المحاورة إلى التفاوض ، وحتى القتال فى سبيل الله .

يكون الإنسان فائقًا مهذبًا مهابا حكيًا .

المسيح عليه السلام كان يذكر الحواريين كثيرًا : « لقد بعثت لخطائين ، لا بررة » الوسيلة يجب أن تكون سليمة وناصعة كنبل الغاية .

استقامة الأسلوب والتصرف ، وهداية إلى الطيب من القول ..

وحتى يكون الرسول نفسه آيةً ومثالاً على الصبر ، وقدرة التحمل ..

فن التعامل وإدارة الحديث وتوجيه الرأى وقيادته ، والقول المدعم دائمًا بالحجة والبرهان والدليل . الله الرحيم .. الودود .. يقول لموسى :

(وألقيت عليك محبّة منى ولتصنع على عينى) .

صاغه القدير بالحب ، وصنعه على عينه ، وحلّ عقدة لسانه .. وأطلقه بالقول الحسن المترفق - برغم غلظة ووعورة الآخرين - وهو تعليم لنا أيضا - تهذيب وتثقيف - نحن المخاطبين بالقرآن ؛ وتدريب عملى لنا وخبرة فى فن التعامل والدعوة .

بوسعنا أن تشملنا المحبة الربانية ، ويشعّ داخلنا وحولنا النور الإلهى ونكون بأعينه تغمرنا محبته ، يمكن بها أن نصوغ أنفسنا من جديد ، ونستلهم مواقف القرآن .. نتمثل مواقف الأنبياء والثوّار والصالحين ..

الإسلام والدين يجب أن يهذب ، منا المشاعر والنطق ، ويحكم حركة اللسان وأى كلمة تخرج من أفواهنا ..

يجب أن يوجد فرق جوهرى بين حديث المؤمن وعبارات أى مأفون غرور . هذا الفاصل تتوقّف لديه دائمًا الحشود السابقة والحاضرة تتأمل وتفكر وتتخذ موقفًا .

يجب ألّا يفرض خصمك عليك أسلوبه ، وتبرّر لنفسك أنه قد

بدأ ولم يكن أمامك إلاّ أن تجاريه .. إنك بذلك تخسر ، ويجرّك معه إلى الخطأ ..

المواجهة تكون بالحجّة والمنطق وقول الصدق والحق .

٤

وبذلك تثبت عجزه وهوانه ، ويبقى مدحورًا مخذولا .

الداعية يجب أن يتحلّى بالقول الحسن ، وطيب الكلام وصبر الإقناع ، وصدق الحديث .

إن القسوة والغلظة تنفّر الناس وتقطع الطريق على من يريد التعلّم والمعرفة .

لكن الكلمة الطيبة الحانية تجد سبيلها إلى القلب ، وإلى شغاف العقل ، وتعمل عملها فى النفس ..

لا شك أنها مناورة سياسية بارعة ، أن تناقش أو تفاوض عدوًّا مقيتًا ، وخصمًا عنيدًا تعرف مسبقًا أنه لن يستجيب .. ولا يلين أو يستجيب لداعى الحق .. ومع ذلك تفنّد دعواه ، وتدعوه إلى التعقّل والتدبّر وإعمال الفكر .

إن ذلك فى حدّ ذاته يجعله محاصرًا ، يحدّد دائرة وجوده وأفعاله . ويبعد عن كلّ من كان يتبعه وهو فى غفلة من أمره .. أو لا يحيط بأبعاد أهدافه ، ويعود إلى الصواب إلى جانب الحق .

لا يهم أن يقتنع فرعون ومن معه ولكن هذا الأسلوب فى الدعوة يفيد قومًا آخرين، وينمى لديهم تلك العادة المفيدة لتشغيل عقولهم، وتبيّن مواقعهم، وتوضيح وجهة النظر التى منها يطلّون على الموقف وعلى الحياة ذاتها.

تدريب فائق على المستوى الفردى والعام.

إذا كنت « فردًا » وتتعرض للمواجهة مع قوى عاتية.. أو للشهادة وقول الحق، أو كنت ضمن جماعة تدافع عن قضّية مبدأ.. أو تدخل فى عملية نضال مفتوح.

إن هذا الأسلوب يجعلنا نحسّ بالعزّة والثقة وصلابة الإيمان. من تحليل الموقف ذاته، يمكننا الوصول إلى نتيجة باهرة..

ندخل فى مباحثات أو أى نوع من المفاوضات ونكون قد أعددنا لكل أمر عدّته، وأخذنا استعدادنا للخطوة التالية، ونضع تصورا حقيقيًّا لما يمكن أن تتطرّق إليه أبعاد القضية.

نتفاوض بالكلمات والأدلّة.. والصكوك المثبتة والمشروعة.. ويدنا على السلاح ربما.. وقد خططّنا لنهاية المسرحية وأعددنا المفاجأة اللازمة إذا لم تسر الأمور فى خطّها المستقيم.

أسلوب علّمه لنا الله..

بالحب والودّ واللين إن أمكن؛ وبالقتال والاستشهاد إن لزم..

٥

ذلك أنا تعلمنا ألّا نيأس ولا نفرّط: وكيف نصابر ونتذرّع بالصبر عن ثقة ويقين أن المؤمنين والمتّقين لهم الغلبة والعزّة، والله يؤيدهم بنصره ويمدهم بأسباب الفوز المبين.

هو الذى يعلّمنا ويدرّبنا فى مدرسة الجهاد الأعظم؛ ويصوغنا بكلماته.. يجعلنا «بأعينه».. ويلطف بنا ويقصّ علينا من أنباء الرسل والأقوام الغابرين، ومسيرة المجاهدين.. ويضرب الأمثال ليهدينا إلى صراط مستقيم.

ربما عندما تحاور عدوًّا، وصوتك هادىء وكلماتك يسيرة والثقة والاعتزاز تقطر مع منطقك.. وقولك عليه ليّنًا ربما تكشفه - وعلى الملأ - وتبدى أساليبه، ويحاط الناس علمًا بما يمكر، وبما يخفى من سوء.

وقد تكتشفه أنت أيضًا، وتعرف عنه المزيد.

يمكن من محاورته، والمباحثات معه تحديد نقاط الضعف لديه.. والنفاذ إلى أصل الصلف والاستعلاء والغرور..

ومن أسلوبه فى التفاوض تعلم طريقة تفكيره وما عساه يفعل، وقد تجرى تعديلاً لخططك ومشاريع المستقبل لديك بناءً على ذلك..

وقد يكون الأمر «تقية» تتقّى شره.. حتى يكمل استعدادك،

وتحسم أمرك وتحوّل ميزان القوى إلى جانبك..

وفى زمن الحوار والصراع الجدلى يمكن أن تتصاعد بعدّاتك وعددك وتجمع له..

إنه عطاء ونور وفيض من الله وبشرى لنا..

تدريب على العمل الصالح، وحسن الأداء..

هو زادٌ لنا جميعًا.. سلاح وعتاد وحصن سلامة..

محبةٌ غامرة وثراءٌ روحى وفكرىّ.

الله يعلّم نبيه الكتاب والحكمة، ويعدّه للمسئولية العظمى والاستعداد للنضال وسط قوم هم أهل لجج ومحاجاة..

ويعلّمنا الكتاب والحكمة مع الأنبياء والمختارين من الرسل.. ندرك أننا فى كل أمورنا، وحركة حياتنا واتجاه أعمالنا يجب أن نقيس بمقياس الدين، وننهج تبعًا لذلك المنهج القويم فى حياتنا العامة والخاصة، وذلك هو الفوز العظيم.

إنّي نذرت للرحمن صومًا

١

يحدث أحيانًا أن تشعر بحاجتك إلى الصمت .. الصوم.

تريد لتكسر دوّامة الكلام التى لا تنتهى، وتوقف طوفان الكلمات ..

لحظات تأمل خلّاقة ومبدعة، تنصت فيها لذاتك التى هى نفخة قدسية من روح الله .. تتصل بذلك الحوار الداخلى، وتغتسلَ بالنور النابع من الأعماق ..

تقعد فى معزل، أوتتّخذ مكانًا قصيًّا .. وجهتك إلى الله .. تهاجر فيه وتتلمس حكمة الأشياء والأحداث ..

بعدها تطلع على العالم، وتواجه الدنيا بأسرها .. قويًّا معافىً تحدّد رأيك .. وتتّخذ موقفًا، وتتواصل مع دائرة الحوار العام من جديد.

وقد تشاركك الطبيعة ذاتها فتبكى معك أو تثور، وتعود لتحسّ أنك جزء من هذا العالم البديع الصنع .. عافيتك أن تسلم وجهك لله .. وتوقن بالنصر والنجاة .. مادمت مستقيمًا وملتزمًا بالحق ..

وآيتك أن الشمس دائما تعود لتشرق من جديد ..

وقد تقع المعجزة وتجد برهان ربك حاضرًا .. وتصل إلى البصيرة ووضوح الرؤية والحكمة .

وأخذت أتلو القرآن .. فيه شفاء وهدى ..

(وتبياناً لكلّ شيء) هكذا قال عنه من أنزله - ولنجعله فرقانًا ومخرجًا ..

ولنقيم بيننا - وبين الذين لا يؤمنون - حجابًا مستورًا .

ووجدتني أتوقّف عن التلاوة .. وتأخذنى المفاجأة ؛ ومضت الفكرة فى ذهنى بسرعة .. ها هى الآية معجزة مبهرة وحاضرة .. يعلّمنا الله بها، وقد علّمها من قبل أمّنا مريم - العذراء البتول - التى طهرها واصطفاها على نساء العالمين ..

٢

قولى : (إنى نذرت للرحمن صومًا)

ونزلت علىّ الآية بردًا وسلامًا ..

« الصوم عن الكلام » من التدريبات الدينية والروحية الملهمة ..

شفاء للنفس .. وصفاء للذهن .. وشحن للإرادة ..

أعلمنا الله بهذه « الفضيلة » وفاعليتّها .. والصياغة الجديدة التى تلفنا باتباعها .. « لحظة زمن » يتعلّم فيها الإنسان شجاعة الصمود أمام حدّة الافتراء .. والجدل المهين ويجعل الحقائق تنطق بذاتها .. وتفحم جهر السوء، وسقط الكلام.

كنت أمام – محنة مزلزلة – ليست من قبيل الابتلاء بنقص فى الأموال أو الأنفس ..

ولكنها من نوع – المصائب المصنوعة .. والشراك الموضوعة ..

وليتسلّى بك – بعضٌ ولاّهم الله أمرنا – ويجعلونك « فرجة » لهم ومادة عبث وسخرية كما حدث وقذف بالثوار، ومن قالوا ربنا الله إلى الأسود الجائعة ..

وكانت مهرجانات واحتفالات للأباطرة والقياصرة، والمستكبرين – منذ العصور الغابرة – الطغاة السابقون والمحدثون قد يكونون بلا موهبة .. إلاّ مكر السوء .. والتفنن فى التعذيب وقهر القلّة المؤمنة ..

وتتوالى فنون الكهنة والسحرة بتوالى العصور والأزمان ..

« نصب الفخ » وانتظروا كيف يكون البكاء .. والعذاب .. وحرقة النداء والألم .. أمام الامتحان – « تذكرنا » .. لنبصر بعد المسألة .

وجاءتنا الآية مشعة موحيةً .

(**فإمّا ترينّ من البشر أحدًا فقولى إنّى نذرت لِلرحمن صومًا فلن أكلّم اليوم إنسيًّا**) وما تساوى « عذاباتنا » أمام ابتلاء الرسل والأنبياء .. والشهداء وأولياء الله الصالحين .. !

٣

شملتّنى العزّة .. وغمرتنى المحبة وحصنتنى الثقة ..

وتأسّيًا - بأم النور - نذرت للرحمن صومًا ..

لا .. لم تستبد بى المخاوف .. ولم تأخذنى المفاجأة ، لا صراخ ولا عويل ..

ولم نسع إليهم ونضرع لهم .. لا لم تختل حركتنا أو انعدم الوزن لكياننا . ولمّا بدأ العرض المثير .. وجدوا منا صوماً وصمتًا ، وثباتًا ..

رفعتنا المناجاة إلى رحاب أعلى ، وتعلّقنا بمدد السماء .. ولم ننزل إلى حمّى الجدل والدفاع ..

وهكذا صرف الله عنّا كيدهم ، وجعلهم فى الأذّلين والأخسرين .

تبدّدت الخطة .. وخاب هدفها .. وسارت الأمور - على غير ما توقعوا - وذهبت ريحهم .

« الصوم عن الكلام » تدريب باهر حقًّا

أعلمنا الله بهذه الوسيلة ، وجرّبها أمامنا وأوردها لنا كأسلوب ناجع ودواء لأعتى المعضلات .

« هدنة مؤقتة يهذّب فيها المرء جوارحه .. ويستجمع نفسه. ويتأمل حقيقة الحدث. ويطهر « نطقه » ومنطقه ..

لمواجهة المحاجاة الظالمة - والذين يلوون ألسنتهم بغير الحق - ويلبسون الحق بالباطل ..

(فقولى إنى نذرت للرحمن صوما) .

هكذا قال الله لمريم - التى جعلها الله وابنها آيتين ..

أعلمها بما تقول وتفعل فى حدّة الأزمة، وذروة الموقف المهيب .. وابتلاء المحنة ..

لقّنها ماذا يكون تصرّفها وسلوكها، وجعلها أمامنا آيةً ونورًا .. وهدايةً للسلوك الصحيح ..

ماذا تقول حقًا عندما يسعى إليها القوم مستنكرين .. ويخوضون فى حديث جارح ومهين .. ؟

٤

بل وتنطعّ كثيرون .. ويا أخت هارون .. لقد جئت شيئًا فريًّا ..

(ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا).

ستسمع العذراء الطاهرة التى نذرتها أمها لخدمة الله، المتبتّلة لربها.

ستسمع العبارات الجارحة .. والإيماءات القبيحة.

فلما أحست بما ينتظرها - تمنّت الموت - قبل أن يحدث لها

هذا .. ولو أنها كانت نسيًا منسيًّا ..

فعلّمها ربها - ونحن معها - نسمع ونرى ..

ودرّبها لرسالتها النبيلة .. وأحسن إعدادها لتحمل تبعة الجهاد فى سبيل الله ، فقرّت عينها وهدأت نفسها ..

وألجمت القوم عنها ..

(إنى نذرت للرحمن صومًا) .

تصوم لله ، والله بالغ أمره .. وفعّال لما يريد .. وجاعل للمسيح آية ومعجزة تتّخذ موقفًا جليلاً ومهيبًا ؛ وهكذا جعل الله لها فرجًا ومخرجًا .

تصرّف يتّسم بالرفعة والسمو « وهو من عند الله » .

وسلوك يترفّع عن اللغو والتجريح .. لن تكون طرفا فى جدل سقيم .

ولا محاجاة ظالمة ..

المفاجأة التى أعدتها لهم وستفتّ فى عضدهم .

علوّها وثباتها .. وصمتها وصومها ..

وبذلك تصدّ جحافل الظلام ونعيق البوم .. وتسقط أعلا الاتهام .

وتوقف نزيف الكلمات البغيضة فى حلوقهم .

ماذا يفعلون أمام الصمت والصوم .

يزعقون حينًا .. يكررون ما يقولون .. وفجأةً ترتدّ سهامهم إلى

نحورهم لا يدرون ما يصنعون .. تختلّ حركتهم، ويفقدون اتزّانهم، وتدور دائرة السوء عليهم.. وتدخل القسمة بين صفوفهم: بين مصدّق ومكذّب ومتردّد، ومندهش..

يجدون أنه قد فرض عليهم موقف مغاير تمامًا، وعليهم أن يعيدوا حساباتهم.

٥

والتفكير والتدبّر..

ماذا يعنى الصمت.. وكيف السبيل إلى الصيام ؟.

وما معنى الثبات.. وعدم الانهيار ؟.

ينشغلون بأنفسهم، وترميم مكيدتهم.. وتصدعها وخذلانهم..

وينجو الصالحون، ويزدادون إيمانًا وثباتًا وسكينة.

« وزكريا » عندما دعا ربه أن يجعل له آية أمدّه الله بالجواب: (آيتك ألا تكلّم الناس ثلاثة أيامٍ).

هو أسلوبٌ للمجاهدة إذن .. وقاعدةٌ للنضال، وصياغةٌ من أجل الجهاد. نصوم أياما عن الكلام..

تطهّر وتقرّب من الله، واتصال بحبله المتين.. نسبّح له ونذكره كثيرًا، ونتعلّم من كتابه ومحبّته وعلمه العظيم..

ندعوه بأسمائه الحسنى.. فنتمثلها فى أنفسنا.. ونتزوّد منها فى التقرّب إليه؛ والمسيرة إلى النبل والنقاء والاستقامة.

نعود إلى العالم .. وقد تطهّرنا ، وتزوّدنا بفضيلة الحكمة والتأمل .. وتدرّبت جوارحنا وامتلكنا ناصية ألسنتنا .. فلا ننطق إلّا حسناً وصدقاً وحقاً .

تدريب خلّاق على المستوى العام والخاص . قوى كامنة لدى الفرد والجماعة ..

تستطيع أن تلهم خطونا .. وترسم استقامة الطريق أمامنا ، وتحدّد العمل الصالح وجهتنا وغايتنا ..

لماذا لا نتدرّب عليه جميعًا ، ونعود خير أمة أخرجت للناس .

نحن أتى علينا حين من الدهر ، كان « الكلام » يفيض فى الأزقة والطرقات .. طوفان يغرق كلّ شىء ، ويغطى على كل الأشياء .

٦

كلام أجوف كثير .. وملق وضجيج ونفاق ..

حتى فقدت الكلمات معناها ، وكنا نعرف جميعًا أنها بضاعة بائرة .. وأنها مجرد ذرٍّ للرماد فى العيون .. يوقف الرؤية والحركة ، وحرية الإصلاح .

وشجاعة الإقدام .

لم نجرّب أبدًا ذلك الدواء الشافى والعلاج .

نصوم للرحمن يومًا أو بعض يوم عن الكلام والهتاف .

عن الجهر بالسوء .. ودوّامة التصريحات والإعلانات والوعود وفنون الخداع ، نصوم عن القول والخطب الرنانة والكلمات وبالونات التضخيم والإيهام ، نعمل ، ونتدرّب . ونصوغ أنفسنا من جديد بوسائل الرحمن .

نصوم كأفراد وإدارة وأمة ..

يكتب فى كل الدفاتر .. والأضابير .. والمنشورات ..

يفرض على كلّ مسئول الصيام عن التصاريح .. والتلويح .. وزيف الكلام .. والتبرير .. والتهوين .. ولوى الألسنة والكلمات ..

ليدع كل منّا عمله أن ينطق .. ويدلّ عليه ويبدى لنا حقيقته وأسلوبه ، وعندما تتكلم الأعمال نعرف أننا اهتدينا ، وترفعنا الأعمال .

من ديارنا وأبنائنا

الحقّ أقول لكم : هزّتنى العبارة الربانية الباهرة ، وتوقفت لدى إعجازها .. مدى ثرائها وتركيزها ، وبلاغة وسحر بيانها .

شملنى نور أخّاذ وهج ينفذ إلى القلب والعقل معًا ..

وكأنى أتلوها للمرّة الأولى جديدة تمامًا . طازجة مازالت بعد دافئة كأننا فى أيام التنزيل الأولى .. وفى مواجهة نفس الأسباب التى اقتضت حكمته ورحمته أن ينْبئنا بها .

وهكذا عندما نأخذ ما آتانا ربّنا بقوّة .. نكتشف فى كلّ مرة شيئًا جديدًا متوهّجًا ساطعًا ، فنحن أمام نبع لا ينضب .. ومعنى لا يهرم وكنز لا ينفد أبدًا ، ونور يبقى سرمدًا .

وطوبى لمن يشتغل بطاعة الله ، ويعمل عملًا صالحًا ويقول للناس حسنًا .

(قالوا وما لنا ألّا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) .

استوقفتنى العبارة البليغة معجزة فى البيان ، وآية فى الأداء ورسم الحركة وروعة التصوير .

واه من الخروج من الديار ، والأبناء ، ويا لعذاب تشريدنا .. وسبى أولادنا ونفينا بعيدًا عن الديار والعيال .

فما بالنا ألّا نجاهد فى سبيل الله ، ولا نجمع على أمر بيننا أو نتوحّد أمام المأساة !.

وحتى نرّد هوان « الخروج » ومذلّة التردّي ، وحسرة الخذلان .

ولكن هل هو جهاد فى سبيل الله حقًا ؟

كثيرون سيلقون السؤال .. وحتى يشغلنا الجدل والخلاف ندور فى دوامة الفتوى والقياس اللفظى ومدلول الاستدلال .. ربما نجد ثغرّة ننفذ منها ، ونبرر بها تقاعسنا ومرارة الإدبار والفرار .

وحسم القرآن هذه القضية :

فليس الجهاد فى سبيل الله دفاعًا عن الدين فقط .. لكن الله الخالق الرحيم جعلها أعمّ وأشمل ، أكثر اتساعًا وسعة .

فالدفاع عن النفس والأرض ، والعرض ، والذود عن الحرية والكرامة كلّها – فى سبيل الله –

الدفاع عن الحقيقة بشتى الوسائل وحسن الاستعداد والعمل لهذه الغاية .. وشهادة الحق بأحقّية الناس فى أرضهم وخيراتهم وأمنهم

على الديار والعيال – كل ذلك فى سبيل الله – فلا شك أن الغاصب سيؤذى الناس فى حركة حياتهم عامة: سواء الدينية فيها أو الاجتماعية والسياسية.. يفرّق وحدة الصف بينهم، وتتمزّق الصلات والأخلاق ولا يعودون أمةً، وهو يفتنهم عن دينهم، ويسلب الثمار والعيال.

لذا فالمؤمن حقًّا لابدّ أن ينهض للدفاع عن أمتّه وكرامته، بيته وقوت أولاده ومستقبل إخوة له.

وهو فى سبيل الله.

(أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)

فماذا ننتظر لنعد العدّة.. ونجعل إيقاع الحركة كلها فى مجتمعنا من أجل الوقوف بجانب الحق، وغاية استعادة الأرض والحرية، والتدريب على حسن الأداء ؟.

ابتداءً من الدرس.. إلى الزرع.. إلى الإنتاج.

عشنا ظروفًا صعبةً وأيّاماً عسيرة، ورأينا « الخروج » من الأبناء والديار – رأى العين – وجفّت حلوقنا بالمرارة والأسى. وقفنا « مصلوبين.. هكذا » على بوابة الجحيم.

لم يكن أحد منّا بعيدًا أو غائبًا؛ بل حاضرتنا جميعًا ألسنة اللهب، وفاجعة المذلة..

وحتى فيما بيننا كان يتمّ « الخروج » ونحن داخل دورنا. فالعدوّ الغاصب لا يكتفى بالقتل والتشريد والإبادة.. إنه يفعل

ذلك ليروع الآخرين، ويحذرهم ويبذر بذور الجبن والخوف بين جنوبهم. ولكن لديه أيضًا أساليبه « الخفية » التى تليق بحضارة القرن العشرين..

أحيانًا لا يستولى الغاصب على البيوت والجدران أو يدكّها. بل هو « يستبيح الحمى » يجعلها خاضعةً له.. مثقوبة السقف والأعمدة. يحيطها بأسلاك من « الخوف ».. ينظر داخل « خصوصياتها » ويعتلى سطحها - ويهيمن على توجيه الحركة داخلها - والعبث فى « جوانيتها ».

لا يخرجونك - ظاهريًّا هكذا أو ماديًّا - لكنهم ينالونك وأنت داخل دارك، وحولك عيالك وفى عمق الحجرات.

يأسرون أبناءك.. يعتقلونهم - أمام عينيك - وعلى مشهد منك يفرغونهم من الحب والانتماء.

يستأصلون لديهم قيم الدين، والمحبّة فى الله.

يطلقونهم « وحوشاً بريئة معذبة ».

فهل الأمر - بعد ذلك - لا يعنيك.. والخروج المهين لم يصل إلى أعتابك؟

أم أن الخطر شملنا جميعًا - كأمة - والحصار أحاط بنا.. وواجب علينا اليقظة واستنهاض الهمم.. والحثّ على الشجاعة والعزم والعمل الدائب من أجل الإصلاح، وإحقاق الحقّ وإشاعة العدل والسلام..

هى قصة قوم من بنى إسرائيل – أخرجوا من ديارهم وأبعدوا عن أبنائهم. فعرفوا أن الجبن مذلّة وعار وضياع.. وأن إيثار السلامة « وحذر الموت » لا يقيهم أو يحصّنهم من ويلات العذاب.. بل هو موت أقسى وأمر؛ إذ هو يولّد فى النفس الهزيمة والانكسار ويجلب المذلّة والهوان، ويفقدهم الحرية والكرامة والاستقلال.

« الخوف ».. والجبن.. والتردد..

موت كلّ يوم ألوف المرّات.. ويوقعهم فى تنكيل عدوّهم بهم وقهر التبعية والاستعباد.

وعلم هؤلاء القوم أن لابدّ من القتال.

واجب الدفاع عن الأهل والأرض، والشرف ضرورة – وفى القصاص حياة – القرآن لم يعيّن لنا القوم.. ولا الزمان أو المكان.. ولم يحدّد الشخصيات – ولو علم أن لنا خيرًا فى التعيين لتفضّل علينا بذلك – كما يقول شيخنا الإمام محمد عبده.

وقصص القرآن – ليست كروايات التاريخ – تذكر الموقع والعصر والأبطال، أو تعتنى بكافة التفاصيل والجزئيات.

التفاصيل ليست مهمّة، ولا تضيف شيئًا لموضع العبرة من القصّة.. بل ربما تشغل الذهن عنها، وتصرفه عن استيعاب المعنى الحقيقى من قصها. « وهو منهج حكيم فى كتابة التاريخ والمسرح علينا تعلّمه من القرآن ».

ما يهمّ هو « الحدث ».. أو الموقف وتأمل المعنى.. والحكمة

فيه .. والتوصيل إلى « لحظة التنوير » المنبعثة منه حتى نستلهم العبرة والعظة .. ونستوعب الدرس المستفاد منه ..

بعد ذلك يمكننا أن نجعل أسلوب حياتنا أنبل وأفضل ، ونقيس بمقياس الدين الظروف المحيطة بنا .. والأحداث من حولنا .

ولنعد لحال القوم الذين يخبرنا الله بنبئهم .. عندما أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ..

وعلينا التذكّر بشدّة – نحن جموع المخاطبين بالقرآن – إن تلك الأمثال إنما ضربت لنا لنتخذها مثالاً ونفيد منها ، ونطبقها على واقع حياتنا نقيمها ونعمل على غرسها داخل نفوسنا وأرضنا .. ولنحيى بها الأرض والقوم البور بيننا .

علموا إذن أن القتال ضرورةٌ . وواجب الدفاع عن الحق واسترجاع الديار والأبناء واجب ، والتمسك بفضيلة الشهامة والشجاعة مفروض ومؤكّد .. والعودة إلى الله يقتضى الإعداد للجهاد والتجهيز له وبذل الأنفس والأموال ..

ومحاربة الاستغلال والفساد جمعٌ لشتات الأمة .. وتوحيد للقلوب والطاقات .

يخبرنا القرآن أن هؤلاء القوم عندما علموا ضرورة الجهاد واستعدّوا له – طلبوا من نبيٍّ لهم وزعيم – أن يقودهم لجبهة القتال فى سبيل الله – وذكرهم بموقفهم المخزى قبل ذلك وفرارهم ، وادعائهم الحيطة والحرص – حذر الموت – وتوقّع الجبن منهم

والنكوص والفرار، لكنهم أبدوا دهشتهم وعجبهم.. أىّ سبب يدعوهم ألّا يقاتلوا ! وقد وجد سبب القتال - ويعلمون أنه أيضًا فى سبيل الله - سبب حيوىّ وخطير، لا يمكن تجاهله أو الإغضاء عنه.. أو تبرير التردّد.

أى سبب يدعوهم ألّا يناضلوا.. وقد أخرجوا من ديارهم، وفراق أبنائهم بالقوّة والقهر والاستعباد.

إن الأمم فى حاجة إلى دفع الهلاك والعدوان عليها.. والجهاد ضرورة أمام البغى والاغتصاب.

وصلوا إذن إلى هذا الاستنتاج الصحيح.. ووضحت الرؤية لديهم وأيقنوا بضرورة العودة إلى طريق الاستقامة والعزّة.. طريق الله.

ومع ذلك عندما جاءت اللحظة الحاسمة، ودارت المعركة.. فرّ كثيرٌ منهم وأدبروا، وعادوا لسيرتهم الأولى من الجبن والإحجام. وعادوا للجدال ومعارك الكلام، والمبارزة اللفظية والحجج ومقولات التبرير.. ولم تثبت إلّا فئةٌ قليلة فجاءها نصر الله.

وهكذا يعيد « الدين » تربيتنا من جديد.. ويعطينا معنى أعمّ « للجهاد » ويبيّن عقاب الأقوام التى تجبن وتتراخى.. وإمكانية النصر والغلبة للفئة القليلة المؤمنة التى تلتزم بقيم الشهامة والشرف، وتجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله.

هاجر فى البريّة

سلام على إبراهيم..

كان أمّةً حقًّا وقد ابتلاه ربّه، وجعل حياته كلها سلسلة من المواقف الصعبة والمحن العسيرة.

كان يخرج من امتحان ليلقى بلاءً عظيمًا، ويجتاز شدّة ليواجه بمحنة مبينة. وبين ذلك يلقى محاجاة ظالمةً، وضغوطًا ثقيلة.. ومواجهةً محرقة، ونفورًا من الأب ونُذرًا مستطيرة.

ذلك لأن الله يحبّه.. وجعله للناس إمامًا وللأنبياء أبا واتخذه خليلا.

- ومن يحببه الله أكثر يبتله كثيرًا.

وقد اجتاز إبراهيم الخليل مصاعب جمّة، ومواقف عنيفةً.. وعبر مثلث الصبر المهول - فى البأساء والضراء وحين البأس -

حتى يصير للناس آيةً، ويصبح من أولى العزم من الرسل.
ومنذ أن كان صبيًّا يقلّب وجهه فى السماء.، ويرفض تلك التماثيل التى يعكفون عليها وهى لا تضرّ ولا تنفع تربصّ به القوم وأتوا به على أعين الناس - وأضرموا نارًا عظيمة.
ونحن أيضًا يمكننا القفز من فوق اللهب.
مادمنا ننضمّ إلى جيش الباحثين عن الحقيقة، والمجاهدين فى سبيل الحق.. علينا بالتمرس بمدرسة النضال، والمجاهدة والمصابرة حتى نفوز بالشهادة أو النصر، ونستحق أن يقول الله من أجلنا (يانار كونى بردًا وسلامًا) علينا باجتياز النيران التى يصبّونها فوقنا فى المخيمات والدور والطريق العام.

٢

رفع إبراهيم الخليل يديه إلى السماء. وقلبه يخفق بعنف، ويكتم روعه.. يدعو الله السميع البصير.
(ربنا إنّى أسكنت من ذرّيتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثّمرات).
كان أمام اختبار بيّن..
يخرج بهاجر زوجه - وطفله إسماعيل إلى البرية: وادٍ قفر - غير ذى زرع - ويتركهم هناك وسط الوحشة والغربة..

موقف عسير ..

لكن الرسول الحانى، والأب العطوف فعله .. وخلّفهم من بعده، وهو لا يقدر أن يلتفت إليهم.

لكنه تطلّع إلى ربّه ودعاه.

هاجر كانت أشدّ منه وجلاً وحيرةً.

تسأل مروعةً .. كيف تتركنا .. ولمن تكلنا ؟ .. ولا تجد جوابًا ..

وقفت مذهولةً مدهوشة ..

كان يجب أن تقول شيئًا .. تسمع صوت نفسها، تلتمس إشارة من داخلها .. قبل أن يغيب عن ناظريها تمامًا .. سألت : هل الله أمرك بهذا ؟

خيّل إليها أنها رأت علامة أن نعم.

عادت تنظر حولها .. تقف وحيدةً هكذا فى قلب وادٍ سحيق، تواجه القفر والعراء، ولا إنسان حولها.

امرأة شابّة وطفل رضيع؛ ألقى بها إلى العزلة وإلى المجهول اليأس محيط بها .. لا مخرج ولا مفرّ.

يمكن أن تنهار.. تصرخ .. تلقى بنفسها من حالق.

ظلّت واقفةً .. سمعت نفسها تقول : الله لن يضيّعنا ..

« الله لا يضيّع أهله أبدًا » ..

٣

برقت الفكرة المضيئة داخلها .. أحسّت أمنًا ودفئًا ..

عند ذكر الله تطمئن القلوب ، ويتبدّد اليأس ويشتدّ عودك .. وتسرى فى كيانك قوىً كامنة ..

ربط الله على قلبها .. استعادت هدوءها .. أخذت تدير بصرها فيما حولها .. وتتدارك أبعاد الموقف ..

أرض صعبة وطبيعة موحشة ..

والصغير بدأ يشعر بالعطش ويتلوّى من الألم .

لابد من عمل شىء .. التجمّد هكذا غير مفيد ، لابدّ أن تسعى .. تفكّر .. حركة فى أىّ اتجاه .. الحركة والسعى يمنحان الثقة والأمل .

أطلّت على الوادى .. صخر ولا ماء .. حجارة ولا ماء .

اندفعت ترتقى الصفا ، وترتد إلى المروة تبحث عن قطرة ماء .

ظلّت هكذا تسعى بين الجبلين مكدودة .. متعثرة .. إنها رمز لمقاومة الإنسان للحركة الصاعدة إلى السماء تلتمس عونًا وغوثًا ، وتسعى بإصرار لأن تعمل أقصى ما فى طاقتها وجهدها .

سبع مرات تروح وتجىء مصرّة ، مليئة بالرجاء مفعمة بالأمل تنادى ربّها .

ما كانت تدرى ساعتها أن الملايين من أقدام المؤمنين ستظلّ

تهرول ، ساعيةً بين الصفا والمروة تخليدًا لهذا الموقف الصعب .
وتسليمًا للنفس والوجه إلى الله .. وعدم اليأس من رحمته ..
السعى والحركة واستمرار المحاولة أمام لحظة موصدة يبدو ألّا مخرج منها ولا انفراج لها .
وتحدث المعجزة : يتفجّر الماء من قلب الصخر .. وينبثق السيل العذب .. يرتوى الصغير .. ويحوم الطير ويقبل قوم رحّل آنسوا ماءً ومكانًا آمنًا ويبدأ العمار والازدهار .
ونحن أيضًا نستطيع أن نتمثّل الموقف ، ونصل إلى ذروته .. ونقيس به حركة حياتنا أمام محنة أو اختبار أو بلاء لا نهن ولا نحزن ولا ننكسر ..

٤

نسعى ونعمل أقصى ما فى وسعنا .. نطرق كل الأسباب .. ونبحث عن قطرة فرج وانفراج سيكون الله معنا حاضرًا وشاهدنا ..
وتقع المعجزة ..
سبحانه هو الذى يقصّ علينا من أنباء الرسل والصالحين والصدّيقين والشهداء ما نثبّت به أفئدتنا ، وتثبيت أقدامنا .
نتوقف أمام هذه الشخصية الباهرة « هاجر » .
ليست من الأنبياء ..

إنما هى إنسانة بسيطة.. زوج وأم حانية.

كيف استطاعت أن تصمد أمام الموقف الرهيب.. من منّا يتحمّل أن ينفى خارج دياره.. ويقذف به إلى البرية دون عدّة أو عتاد؟.

فى قمة الحرج والأزمة يجب أن نسعى ونعمل، حتى ولو بدت الحركة وكأنها مجرد رمز عن الاستمرار والمثابرة..

معجزة الحياة من قلب العتمة ينبثق النور.. والله بقدرته، وفعل إرادته..

يحيى موات النفس والأرض، ويخرج حبًّا من أرض ميتة..

ومادام القلب مليئًا بالإيمان.. والإنسان مستقيمًا ويعمل صالحًا..

فلابدّ أن تقع المعجزة ويتعدى الأسباب وحسابات القوى، وتكون له الغلبة والنجاة..

هاجر كانت أميرةً من جنوب الوادى تعدّ لملك مصر، لكنها وقعت فى الأسر للملوك الرعاة..

كان يمكن أن تنهار وتنتحب..

من مليكة متوجة إلى أسيرة وسجينة.. ايّ مصير تعس..!

كان يمكن أن تهين نفسها وتستخدم أساليب النساء وكيدهن وترضى بمرتبة المحظية المقرّبة.. لكنها فى السجن تعلّمت درسًا نافعًا..

لا يهمّ ما يكون لقبك أو منصبك.. المهم حقيقتك.. ومدى

احترامك لنفسك ؛ تحررت فى السجن من مظاهر الترف وأبّهة الملك . وسطوة السلطان وزيف التابعين والمنافقين ، وجدت نفسها وأصرّت أن تواجه المحنة رافعةً رأسها صامدة ..

٥

المظاهر والترف والأتباع ليست دليلاً على العظمة ، العظمة الحقيقية تكمن داخل الإنسان عندما يتّبع الحق ، ويتمثل قيم الشجاعة والتضحية .

ويبدو أن الأميرة المصرية قد لاقت فى السجن واحدةً ممّن يكتمن إيمانهن .. تعلّمت فى مدرسة الصمود المصرى .. أرض الصبر والمعاناة والربوة المباركة . تعلّمت التوحيد واطمأن قلبها ، واشتدّ عودها ..

نجّاها الإيمان من الأسر ..

حرّية فسيحة تشعر بها وقلبك مطمئن بالإيمان - حتى وأنت داخل أسوار مغلقة .. وترجو من الله ما لايرجون ..

قيود الحديد .. أو قيود الصخور والحجارة .. لقد مرّت من التجربة واستفادت منها ولم تيأس أو تهن ، وأوجد الله لها مخرجًا .

هكذا عندما واجهت محنتها فى البريّة .. ذكرت الله فى قمّة الخوف والعطش ، رطّبت لسانها بذكره ..

كانت تهرول صاعدةً هابطةً تبتهل .. وتناجى ربّها ، وشاهدت

الصخر يتشقّق منه الماء.

وترى - رأى العين - كيف يصير القفر بلدًا آمنًا تهوى إليه الأفئدة من كلّ البقاع..

واستجاب الله لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام..

(فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم).

هو فى دعائه المكروب.. فى شدّة الغمّ والحزن يطلب أن تحيط بهم قلوب الناس، يعوّضهم الله عن عذاب الوحدة وقسوة العزلة..بين الناس تجد سكنًا ومودّة، ودفء المشاركة.

هى الحياة الحقّة بين الناس والعمل معهم ومن أجلهم..

ربّنا إنّنا نسكن مدنًا عامرةً وبقاعًا مزدحمة، وبيوتًا آهلة ومع ذلك نحسّ بالوحشة.. بالرجفة.. بالقسوة..

مع إبراهيم الخليل ندعوك خالقنا وولينّا.. ربنا لا تذرنا فرادى أبدًا، واجعل بلدنا آمنًا.. واجعل أفئدة من الناس تهوى إلينا وارزقنا من الثمرات. وهيئ لنا أعمالاً صالحة.

وإذ قال ربّك للملائكة

١

لست أدرى تمامًا ماذا يدور فى عقل هذه الصغيرة الجميلة ؟.

ما الذى يجعل عينيها مشدودتين إلى السماء، تسعان الأفق .. وتنطلّقان إلى أمام، وكأنها مشغولة بأمور جسام: بنشأة الكون الأولى .. ووجود الإنسان والمعنى وراء أشياء كثيرة - برغم السن الغضّة والنضيرة ؟.

يبدو أنها جاءت مزوّدة بطاقة غريبة قادرة على إثارة السؤال والرغبة فى الحصول على إجابة مقنعة ودقيقة.

دفعتنى الصغيرة لأجرب معها أسلوبًا جديدًا .. تجربة علمية شيقة ومثيرة .. ما إن تحاصرنى بسؤال حتى أجيبها بآخر ما وقفت عليه من خلاصة البحث والدرس، وهداية الدين.

والغريب أنها تبدى تفهمًا واستيعابًا كأنها وجدت بين كلماتى بغيتها وما كانت تبحث عنه، ولا تلبث أن تنصرف عنى تمارس ألعاب الطفولة.. إلى أن تقفز فوق علامة استفهام جديدة.

ومثل كلّ الأطفال تحبّ القصص وتعمل خيالها فيها، وقلت أتلو عليها قصص القرآن..

فهو أحسن القصص، ونور ربّانىّ تنفتح به عقولنا.. وتثرى أرواحنا ونستلهم أنباءً وعبرةً، ومواقف شامخة ونبيلة..

المهم أننى أمام هذه التجربة - مع ابنتى - تعلّمت كثيرًا.. واستفدت علمًا عظيمًا..

إنك أمام البراءة والنقاء.. تجدّف فى ماء طهور، وتترك علامات منيرة..

٢

وفى محاولة تجسيد القصة وإبراز الفكرة الأساسية للصغيرة.. تجد أنك قد أحطت علمًا بما لم تعلم من قبل..

وتتحدّد أمامك الغاية من القصّ المبدع للبيان الربّانى..

وأنت أمام الفطرة السليمة تدرك أهمية الإقناع، والأسلوب الذى ترفق بنا الإله وحدّثنا به، وقدّم الدليل والبرهان والحجة دائمًا.. وطالبنا أن نتأمل ونفكّر ونتدبّر المعنى.. ونتخّذ موقفًا نبيلًا..

وكنت أستغرق فى إعادة التلاوة، وإبراز جوانب القصة ونحسّن

من أسلوبنا وأدائنا وليجعل الله لنا نورًا نمشي به فى الأسواق وبين الناس، ونغرسه فى جوف الأبناء .. وفى مجال حركتهم وعملهم.

وبدل أن تغفو الصغيرة العذبة على صدر قصص الأبطال والشهداء والصالحين.. كانت تتيقّظ وتنشط وتلقى بأسئلة حادّة وعنيفة.

وأحيانًا عندما تفتح عينيها فى الصباح تلقي بسؤال وكأنه ظلّ يعمل معها طوال الليل وداخل باطنها الغضّ..

أعيد التلاوة وأحفظها أمامها..

(وإذ قال ربّك للملائكة إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّى أعلم ما لا تعلمون).

قالت : وهل غضب الله من الملائكة عندما قالوا له هذا ؟

قلت : إنما شاء الله سبحانه أن تكون القصة عن بداية خلق أبينا آدم بطريقة الحوار هذه ، لكى نفهم المعنى من تكريم الله للإنسان وجعله خليفة ، وتفضيله حتى على الملائكة..

المهم أن نفهم المعنى.. المهم علوّ مكانة الإنسان عند خالقه..

٣

- يقول شيخنا الإمام محمد عبده إن الحوار فى الآيات شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته ؛ إنما صوره لنا بالقول والمراجعة

والسؤال والجواب لندرك مدى تكريم الإنسان. وأن القصة وردت مورد التمثيل.

وقلت: إن القصّة صوّرت على هذا النحو من «قاعدة افتراضية» بحدوث أخذٍ وردّ.. وسؤال ومراجعة.. أو تعبير عن دهشة.. لكي نلتفت بشدّة للغاية وراء القصة.

صورة افتراضية بليغة بغرض حدوث «التعجّب»

ويحسم الله سبحانه الأمر بعلمه وحكمته (**إِنِّى أَعلم ما لا تعلمون**)

والحكمة من تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامى، ونموّ العقل المباشر فيه نموًّا عضويًّا على هيئة حوار.. ليس فى أنه «حدث» أو «وقع» أو «جائز أصلًا» ولكن لخلق تيار من الوعى يجعل المؤمن يغوص وراء الحكمة فى خلقه..

ومعنى وجوده، وعلوّ شأن الإنسان لدى خالقه تعالى.

وإمكانية أن يحقّق السموّ والنبل فى سلوكه وعمله ليكون خليفةً على الأرض حقا.

ولنضرب مثلًا بشريًّا مبسّطًا.. لتفهم الصغيرة أكثر، وتتّضح الصورة..

أب جليل ومهاب.. عرف عنه الحكمة والاتزان.. تصرّف على نحو ما فى أحد الأمور؛ يبدو وقعه غريبًا على نفوس الأبناء وقد تخفى الحكمة من ورائه.

ربما منعهم الحياء، وشدة الثقة بالأب .. وحسن التربية من إلقاء السؤال مباشرة والاستفسار..

ولكن ذلك لا يعنى أن السؤال لم يرد.. لقد شغل بالهم، ونطقت به عيونهم أكثر من ألسنتهم..

ويدرك الأب حيرتهم وعجبهم « لمعرفته بهم » ويجىء إليهم متفهمًا حنونًا، يحكى لهم ما خفى عنهم.. « والحكمة » من وراء تصرّفه وبعد نظره فى المسألة..

٤

يبدأ حديثه بافتراض أنهم وجّهوا السؤال، وألقوه أمامه وكلمات تعجّبهم واعتراضهم.

يقول لهم : ربما سأل أحدكم نفسه ما السرّ فيما حدث ؟.

ولماذا التصرّف على هذا النحو ؟.

وإليكم تفسير ما خفى عليكم.

- هنا ينطلق فى الإيضاح والتفسير من خلال افتراض حدوث الاعتراض والمحاورة.

ويقول الله سبحانه (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).

لقد عرفتنا القصة بقيمة أنفسنا، وما نتميّز به على سائر المخلوقات.. العلم والمعرفة التى تصلنا بالخالق، ويزداد إيماننا وندرك حكمة الله فى خلقنا.

وهو يعلّمنا « الكتاب والحكمة ».
ويقرن دائمًا الحكمة بتعلّم الكتاب.
ويصل الذين « أوتوا العلم » بالإيمان وبه سبحانه وتعالى..

صيغة المستقبل

١

ادّعى « فيلسوف » أن الغد لا يأتى أبدًا ..

لأنه اليوم الذى كنت تنتظره بالأمس .. والحاضر الذى تطلّعت إليه فى الماضى هكذا ننتظر الغد .. لكنه لا يجىء ..

أحسست برعب .. الغد يأتى دائمًا ، ونحن فى انتظاره دومًا لأنه محمل بالأمل .. مشحون بالأحلام يجىء بثمرة العمل والغرس ، والحركة الصالحة .

نتحصن بالغد الواعد الرحيم .. خاطبنا الله بلغة المستقبل فى كتابه .. جعلها صيغة رحمة ومحبّة وتطلّع إلى الثواب والرضوان ، وإلى أعلى مراتب الترقى والمحبة .

تلك الدائرة الساحرة ، تجعل الحياة محتملةً مستمرة وحافلة ..

هذه النظرة المستقبلية، والكلمات الربّانية الواعدة تجعلنا نصبر.. ونصابر ونقوى على الابتلاء والمحن.

الغد هو شراعنا الممتد نحو علام الغيوب الرحيم الرحيب.. إنه يأتى بوفرة.. يأتى كثيرًا.. معجزة الليل والنهار واختلاف النور والظلام.. ويظلّ الأمل به محلّقًا، والعمل يتوجّه ناحيته.. والإتقان يعلو بنا حقا، والوعد قائمًا بشروق صبح جديد دائمًا.

من رحمة الله علينا ذلك التداخل السحرى بين الأزمنة: الماضى والحاضر والمستقبل.. كرة هائلة تدور بنا.. سيمفونية الزمان الرائعة.

سألنا الله أن جعل علينا الليل سرمدًا، أو جعل النهار سرمدًا.. وكنّا فى بداية طريق التعلم والمعرفة نقرأ جزئيات صغيرة من هذه الأفكار العالية فإذا بنا ننبهر.. وندهش لعمق تفكير الأديب أو الفيلسوف.

٢

لكن كل الحكمة والمعرفة متاحة لنا فى كتابنا: تبيانًا لكل شىء محكم آياته، وباهرة كلماته تسع كل شىء، وتجعلنا من الراسخين فى العلم..

غمرنى السرور عندما تذكرت تلك المعجزة الربانية المبهرة: معجزة الليل والنهار، الظلام والنور العتمة والضيق، ثم يأتى الصبح

من جديد « أليس الصبح بقريب » ؟.

أمامنا كبشر هداية العقل والدين ويمكننا التخطيط والإعداد ونضمن النتيجة فيما بعد؛ إمكانية أن نزيد كل يوم من رصيد عملنا الصالح. ونؤمن بالنصر والثواب العظيم.

ومن معجزة القرآن اشتماله على الإخبار بالغيب والتنبؤ بقضايا مستقبلية كثيرة حدثت بعد سنوات من عصر التنزيل.

حدثت وتحدث كل حين لأن الإعجاز فيه أنه يصلح لكل زمان ومكان.

المستقبل يصبح ماضيًا، وحاضرًا عندما يتحقق، ويظل مستقبلاً لقادم السنين.

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده: تحقّق وعد الله لرسوله وللمؤمنين، ووعيده للكافرين.

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلّنهم من بعد خوفهم أمنًا).

يقول الأستاذ الإمام بنص كلماته: « إن الله تعالى لمّا ينجز وعده هذا كلّه بل بعضه ولابدّ من إتمامه بسيادة الإسلام فى العالم كله ».

وأؤمن عن يقين بأن هذا الوعد قائم وأنه تحقق فى الماضى، وتحقق اليوم وسيظلّ يتحقق دائمًا، طالما الغد بإذن الله يجيء.

صيغة المستقبل إذن تظلّ قائمة ومعلنة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وتلك هى المعجزة، وذلك اليقين هو طوق النجاة الذى يمدّنا به الله الرحيم.

وما علينا إلا أن نزيد من رصيدنا من العمل الصالح، ونشتغل بطاعة الله، ونعدّ العدّة ونثق بالنتيجة وفيها الغلبة والعزّة.

إن ذلك يحدث على مستوى الأفراد والشعوب، على المستوى الشخصى والعام.

والآن والدول العربية قد أصبحت أشتاتًا وتفرقت كلمتها، وسادتها الفرقة والخلاف مثل القبائل المتعارضة التى كانت قبل ظهور الإسلام.

لكن الإسلام وحّد بينها، تشريع سماوى حقق العدل والإخاء والمساواة.

صاغها أمة واحدةً من جديد، أجمعت على القول والفعل؛ لذلك قويت وسادت وأشرقت على العالم حضارةً وعلمًا وخلقًا.

نحن أمام ذات التجربة، الماضى يتداخل أمام عيوننا مع حاضرنا مع ما حدث فى غد الزمان البعيد.

ها هو التاريخ وكأنه يعيد نفسه، فهل نستشعر ما نحن فيه من هُوىً وهوان؟

هل نجمع كلمتنا على الإسلام، ونقيم الراية الشاهقة نستظلّ بها فى جهادنا الكبير؟ نعمل من أجل الغد القادم الموعود!!

بردًا وسلامًا

قرآن الفجر كان مشهودًا، آيات تشرق بها نفسى .. تتخلل كيانى .. تشع بها خلاياى تصل إلى مرحلة التجلى .. نتمثل معانيها مجسمة حية، وحاضرة. نراها رأى العين فى جلاء ووضوح ..

نكتشف بها زوايا مضيئة .. نرتفع إلى مرحلة من النضج الإنسانى، تنزل على القلب بردًا وسلامًا ويغمرنا الحب.

(قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم)

رؤية بصرية تتجلى من الآيات .. تجد أنت نفسك. وأنت جمعًا.

الله معك وهو قريب ..

يخاطبك فردًا .. ويكلمك بين جموع المؤمنين.

أنت مع إبراهيم والذين معه .. وتجد فيه أسوة حسنة، وصحبه فى

محبة الله .. يحدثك الله ، يناديك .. يعلمك ليثبت منك الفؤاد والخُطا ، ويهدَأ روعك ويخلص عقلك من الجمود والقصور .. ورؤية الواقع المحدود .

يهبك فتحًا مبينًا .. فتشهد المعجزة من جديد ، وتتأمل حكمتها .. وإمكانية حدوثها حتى فى المدينة القاسية .. والقرى الظالمة وهجير الطرقات ، ومد العذاب المتصل .

ومن يرغب عن ملة إبراهيم ؟ .

كان أمة ، قانتًا وحليًا اصطفاه واتخذه الرحمن خليلا ، ملة أبينا إبراهيم التى ننتسب إليها جميعًا ونفخر بها ، وتصلنا بجمعنا .. من يرغب عن صبغة الله ؟ .

إلا من هانت عليه نفسه حتى يذوى بغصنه من شجرة النبوة البهيجة .. ويقصم فرعه عن الذرية الصالحة ، ويرتضى لنجمه أن يأفل .

كيف السبيل لمن لا يتمثل بين دروب حياته الشدة والعنت والإرهاق لخليل الرحمن فى حله وترحاله .

كيف لمن يريد أن يورث ذريته نشأة صالحة .. وخلقًا قويًا ، وعقلية مستنيرة تمتلك قوى الاستدلال والترجيح ؛ ولا يحكى لهم جهاد ومواقف أبى الأنبياء .

من يرغب عن ملة إبراهيم - إلا مَن سفه نفسه - واستهان بقوة عقله وإدراكه ، وموهبة التفكير لديه .. وكأن معزولاً عن نعمة

السمع والبصر فاستحب العمى على الهدى.

دعوة إبراهيم هى التوحيد.. إسلام القلب لله.. والإخلاص فى العمل وإقامة الدين.

حياته تربية دينية خالصة، واختبار طويل.. وبلاء شديد. مراحل نموه ونضجه مثال للاستدلال العقلى، وإعمال الفكر.. واستلهام الفطرة السليمة.

رفع ميزان العدل الإلهى.. وجعل الدين أسلوب حياة يمتزج بالنفس ويبعث فيها قوى الخير، وتصبح العقيدة أعز من النفس والولد.

كان إبراهيم متيقظ الذهن منذ طفولته.. يتأمل فيما حوله ولا يرضى عن عبادة الأوثان، داخله اقتناع باهر بأن الإله لابد يكون له الكمال المطلق.. الوحدانية.. والإرادة. هو فى داخله «الحى القيوم».. العلى القدير..

أعلى من نجوم السماء.. تطلع إلى القمر.. إلى الشمس – هذا أكبر – عاد يقول بقوة: (لا أحب الآفلين).

الأفول يعنى تحولاً وتغيرًا..

لا يمكن أن يكون إلهًا من يعتريه النقص.. يشوبه التحول والتبدل..

إذ لابد له من الجلال والكمال.

يكون وحده مصدر الوجود والحياة.

القائم بالأمر .. المدبر ، وهو البديع المصور.
عقلية طموحة مستنيرة .. وتفكير فطرى سليم ، تصور تلقائى ..
استدلال مقنع وارتقاء بالتفكير حتى مرحلة اليقين.
هكذا دله تفكيره .. وقوة منطقه وحسن رؤيته للأمور.
وصل إلى بدء المعرفة الصحيحة :
كل ما فى الكون « مخلوق ».. ولابد من وجود « الخالق » ..
خالق الكون والناس ..

والإنسان بلا شك أعظم المخلوقات .. إذ الكون كله مسخر له .
مفعول لينتفع به .. ميزه الله بهبة « العقل ».. الذى هو وسيلته
للهداية ومعرفة الله .
واطمأن قلبه .
– لقد بلغت به خصلة التفكير والتأمل مداها حتى لقد سأل ربه
أن يريه كيف يحيى الموتى ..

(قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) .
واطمأن قلبه .

وهكذا عندما كان يفهم يقتنع ، ويجد لزامًا عليه أن ينتقل من
مرحلة العلم إلى العمل .
كان يريد ليطبق قانونه على الناس .. حسِب أن أسلوب الإقناع
يثمر بينهم لكنهم كانوا قوم بور ظالمين ..

(إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) .

واستهول الأب الأمر – بضاعته تبور فى بيته !.

(أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) .

لم يُجْدِ النقاش ، تأزم الموقف .. ازْوَرَّ عنه الأهل .. وهدده الأب بالرجم .. عملية انفصام عسيرة .. يشقى بها الإنسان طويلا .. فجأة تجد نفسك وحيدًا غريبًا .. وأنت وسط أهلك ، داخل بيتك أو خيمتك .

لم تعد سكنًا .. ولا تجد فيها مأوى ولا أمنًا .

أبوك .. أبوك غاضب يقول (اهجرنى مليًا) .

يدير لك ظهره ، يولى عنك سمعه وبصره .. ولا يستجيب لدعوتك .

ينكرك من جئت من أصلابهم .. ومن بين أحشائهم .. من حملتك . وأنت فى علم الغيب .. فى ظهورهم وأمانيهم .

من كنت تستظل بهم على الأرض .. وتَرْكَن .

والإخوة يصابون بالتوحش والسّعار .. لماذا لا تكون مثلهم ؟ تتبع ما كان عليه آباؤك وأجدادك ؛ وتستسلم للأصنام والأوثان والعالين . لم تصعد ناظريك إلى السماء وتجر عليهم المتاعب .. ينهشون لحمك ، ويسخرون منك .. ويتحولون إلى أدوات تعذيب .

وتشقى زمنا .. تعانى آلام الانفصام عن الأهل والديار وتنكر الصحاب ..

تحاول مداواة الجرح .. شفاء حدة القطع ..

تربت على نفسك .. تقول لا حل لى ولا مخرج ؛ إلا أن أفتح بينى وبين قومى - بالحق - أستظل بدفء العمل بينهم .. دعوتهم إلى إصلاح حالهم وبالهم .. حسن الحياة والمآب ..

الصبر والمصابرة فى حمل الرسالة ..

فكر إبراهيم ليجرب طريقة أخرى يحل بها مشكلة قومه - يحطم التماثيل - وبذلك يفحمهم بحجة بالغة الوضوح والمنطق يقدم إليهم الدليل العملى .. والبرهان الواقعى .. يثبت أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولانفعًا .

- كان مثالى الفكر .. صافى الذهن ، نقى السريرة ، وثار الناس عليه !

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) ؟

(اسألوهم إن كانوا ينطقون) .

... ...

(أتعبدون ما تنحتون) .

... ...

وبرغم الخزى فى المجادلة العلنية ، وخذلان الآلهة الصماء . وأشلائها المبعثرة ، فإن جماهير العامة هاجت هياجًا شديدًا .. !

ذات الجماهير التى حسب إبراهيم أنها ستقف بجانبه تدعمه .. وتشد أزره ، وتنصر دعوته .

لكن العامة كثيرًا مايؤلبها الحكام .. يخدعها الرؤساء والمتحكمون فى مصيرها ، يجعلون البسطاء يقفون ضد مصالحهم .. وفى مواجهة من يريدون الإصلاح . الملوك والكهان .. والملأ الأعلى من المترفين – هم أول المكذبين – مع ذلك يتظاهرون بالحرص على التقاليد والأخلاق ، ويصل بهم الأمر أحيانًا إلى ربط نسبهم بالدين وقولهم : إنهم حماة العقيدة ..

يحرصون على بقاء البدع والخرافات ، وزخرف الطقوس والقرابين .. يحرصون على إقامة الشعائر . ولكن بعد إفراغها من أى مضمون – لأنهم فى النهاية مَن يفوزون بالهدايا والقرابين .

هم يعبدون فى الأرض ويتحكمون .. وتبقى لهم المناصب والمنافع وتبعية الناس وخنوعهم .

دعوة إبراهيم تقصم ظهر مكانتهم وكنوزهم ، وتضخم خزانتهم – وهل أخطر من دعوة تدعو الناس للتوحيد والتفكير ؟ .

وهكذا فعلوا لإبراهيم ..

جمعوا له واحتشدوا .. وقالوا : إئتوا به على أعين الناس ..

وبرغم تفوقه عليهم فى المحاجاة .. وعلو منطقه .. وإتيانه بالدليل فإنهم استكبروا .

الأمر لا يتوقف عند تسفيه الأرباب .

المسألة تتهددهم فى الصميم .. فى الكهانة والقداسة التى يدعونها .. وهى ثورة على ما وجدوا عليه آباءهم ، وما ألفه الناس من خضوع ، واتباع كل ما يؤمرون به ..

ضربة مزلزلة تهدد أركان الدولة المترهلة .. والطغمة الراكدة .. تجعل الأرباب المتفرقة إليهًا واحدًا .. يتساوى عنده الخلق أجمعون . وهذا ضد ما ألفوا ؛ فهم لا يرتفعون إلا بقهر العباد وسلبهم حقهم فى القول والعمل .. وكثير من البشر يعيشون ويموتون وهم كالأنعام يساقون فى قطيع .. لا يريدون شغل بالهم ؛ يأخذون الأوضاع المحيطة بهم قضية مسلمة وقدرا - وهذا أدعى للسلامة فى نظرهم - البعض يتخلى طائعًا عن أعظم منة وهبها الله للناس وكرمهم بها .. هبة التفكير .. يحجر على عقله ويتجمد تماماً كإنسان ويسلم قياده لغيره .

دعوة إبراهيم تجعل الأمور صعبة .. توقظ أرواح الناس .. تدعوهم للتدبر والتأمل للنظر فى حال الكون .. والأمم التى سبقتهم ، وعاقبة المستكبرين .. منطقه ساحر ، وحجته قوية . وبيانه آسر .

كان لابد من التصدى لهذه الدعوة بالحريق ..

« النار » كفيلة بمحو كل شىء .

ليس أقل من النار بها ينقذون ، ويرهبون الآخرين ..

« الإحراق » عقوبة الدعاة والمفكرين والمجاهدين

الذين يعيشون ويلات الإنسانية .. ويدعون إلى فكر جديد، وعقيدة عدل وحق ..

– حتى الكتب لم تسلم من الحرق فى القرن العشرين – وتحضر عتاة القوم فى الزمن الحديث فلا يشعلون نارًا، ولا يجمعون الحطب وأدوات الحريق؛ لكنهم يحرقون دون رؤية اللهب واللظى .. ودون تصاعد أبخرة التفحم ومس السوء ..

وترعى النار فى القلب .. والحنايا وأواصر القربى والمحبة.

لابد أن إبراهيم أخذة الروع وهو يُساق إلى الأتون .. لابد كإنسان – ارتجف من الحفل الوحشى المعد له ..

والحشد من الذاهلين ..

قالوا: ائتوا به على أعين الناس ..

ولابد أنه سمع صوتًا خفيًّا – أن اثبت .. اصبر .. ولا تخف .. وشاء الله أن تقع المعجزة – على أعين الناس – يرونها رأى العين.

(قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم).

ونحن فى زمن بعيد عن قيام المعجزة .. لم نشهدها ولم نكن من «الحشد المهول» .. لكن الله تعالى أخبرنا بها، صورها فى كتابه الكريم، رواها أصدق الحاكمين.

كلمته تكون .. كلمته وعد مفعول .. كلمته تقول فى كل الزمان: الله سبحانه وتعالى له الكبرياء فى السموات والأرض – والذى أتقن

كل شيء صُنعًا – لم يخلق كونه عبثًا، ولم يضع شيئًا لغير حكمة ..

ومادمنا نحن المخاطبين بهذه المعجزة .. السامعين بها، الدارسين المتأملين.

وإيماننا يصح بأنها واقعة – علينا إذن تفهم حكمتها وإدراك مدلولها، وحتى نراها أمامنا مجسمة – رأى العين – نتمثلها .. نعيد تصورها، نقيمها حاضرة بين أيدينا – وكأننا شهود.

رؤية بصرية .. محسة ووضوح.

رؤية حقيقية توضح مدى عمق دلالتها وضرورة أخذها بقوة ..

تمتد نعمة الجلاء البصرى لدينا حتى لتشمل أيامنا وترطب لفح النيران من حولنا.

وتثبت منا الفؤاد والخطا ..

حريق يعده لنا الطغاة كل حين ومنذ فجر النبوة ..

ومن يدعون القربى لإبراهيم!

أتون يسلطه علينا – قتلة الأنبياء – ويحرقون مناضلينا .. ويعقمون نساءنا ..

ويدفعوننا فى أيام نحسات – لنكون من الشهود –

معجزة أن تكون النار بردًا وسلامًا على إبراهيم .. معناها: أنه حتى لو كان الابتلاء كالحريق – فإنا لا نتخلى عن عملنا .. نهن .. نذعر أو نلين ..

الحرق لا يمحو الفكر لأنه ينبت فى عقول وقلوب الآخرين..
دعوة إبراهيم لها ورثة أبرار، وذرية من المتقين تأتى الله بقلب سليم، نستطيع بإيماننا ونحن فى قلب الأتون - أن ننجو من الحرق ونرتفع فوق ألسنة اللهب..
يظهر الصهر حقيقة معدننا، وصلابة جهادنا.. وأن العقيدة لدينا أعز من النفس والحياة.
مهما يحفرون، ويشعلون نصر على ألا نذوى.. أو نخر منقلبين..
وممكنة دائمًا المعجزة..

ينقلب كيدهم.. ويكونون فى الأذلين..
يجعلهم الله من الأخسرين..
يصرف عنا مكرهم.. ينجينا ويرفعنا درجات..
ممكنة المعجزة، ودائمة الحدوث..
تقع وتحدث - بصيغة المضارع الممتد حتى آفاق المستقبل البعيد - ونخرج من المحرقة ناضجين مسبحين.

إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله

هدهدتنى الفكرة الملهمة فوق موج الحزن..

- حرية فسيحة تشعر بها وأنت حزين -

تشرد.. تغيب، تبيض عيناك من الدمع تقعد بمعزل.. تسجد أو تقوم.. «تقرير حالتك» يقول إنك حزين وثمة فاجعة معلنة وقعت لك؛ لذلك يعفيك الآخرون من السؤال والاستكشاف.. والتقصى، وقياس درجة الاحتمال.

يصير معلومًا أن هناك حالة قصوى تستدعى - الحزن العام - يتركونك لحظات تلتقط فيها النفس.. وربما «يهدك» الحزن.. يقطع دابرك أو ينهى سيرتك!.

وتجدف «بحرية» فى بحار الحزن، تتطهر بين السباحة

والغوص .. كلما أدركك الغرق تجد أن يدًا حانية تدفعك، وتطفو بك وتربط على قلبك؛ وتردك إلى معجزة البعث والحياة .. تعاقب الليل والنهار.. تجد مشاعرك وقد اهتزت وربت .. تعود الأشياء إليك «مبصرة».

عندما تصل إلى شاطئ الصبر .. تجد أن الله قد من عليك - تجد أن ذكره وتسبيحه وأنت تصارع الموج، وتقاوم الغرق .. وتشق طرقتك وسط الظلام - هو طوق النجاة، وسبيل العودة .. حتى لتشعر أنك ولدت من جديد.

أمام ساحل ممتد إلى الأفق من «الصبر الجميل».

كنت وأنا صغيرة أعجب كثيرًا .. كيف الصبر جميلا؟.

وعرفت أخيرًا ..

لأنها القمة التي تكابد حتى الصعود إليها .. تكبو دونها مرات ومرات، ولكن عندما تصل لا تسقط «بحملك وهمك» لتبدأ من جديد ..

بل تبقى في واحة الأمان وظلال الرحمة .. لأن الوصول هو المشقة والاحتمال وجهاد النفس .. وتفوق على المتاعب والأحزان .. وتعلق بالأمل والرجاء ومداومة الارتقاء.

يقول «بشر بن الحارث الحافي»: أكبر زهاد عصره - وكل العصور -

«الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس».

وما الصبر إلا بالله .. لا حزن ولا خوف مع الصبر .. ولا ضيق مما يمكرون .. صبر أولى العزم من الرسل ..

ميراث الأنبياء ..

« الصبر الجميل » دعوة نبى الله يعقوب .. مقولته الأولى عندما جاءه أبناؤه عشاءً يبكون قالوا : يوسف أكله الذئب .

قال : فصبر جميل – والله المستعان على ما تصفون –

من منقذ الأب الجليل من فاجعة النبأ – وقول السوء .. وقسوة الأبناء والصورة المروعة ؟.

الموت هول .. ومصاب أليم .. وإحساس الفقد مرير ..

لكن أن يقال « هكذا » – أكله الذئب .. ويجيئون بدم على القميص ! .

الصبى الجميل .. باهى الطلعة وضاء الجبين – خرج على وعد أن يرتع ويلعب ...

– لم يكن رباط الدم ولا عاطفة الأبوة فقط ما يجعله قرة عين أبيه –

ولكن ذلك العلم اللدنى الخاص – الذى يعلمه من الله يعقوب عليه السلام – والإحساس الملهم .. إدراك عن يقين أن يوسف هو امتداد لشجرة النبوة .. إنها محبة فى الله . وطريقه « رباط الإيمان » وصلة العقيدة والتوحيد –

ظنوه فى غيهم وضلالهم تفضيلا للصغير .. قالوا بحمقهم وسطحية

تفكيرُهم: «يوسف أحب إلى أبينا منا».

نزغ الشيطان بينهم - والشيطان يبرز من بين الأحقاد الصغيرة والمشاعر الضارة وجفوة الطباع.

كبرت المسألة عليهم.. حكموا على أبيهم «بالضلال».

نبى الله يعقوب المؤتمن على رسالة السماء.. يدعو إلى عبادة الله وإقامة العدل، يتهم بأنه «فى ضلال مبين» - من وجهة نظر أبنائه العابثين؛ وليت الأمر وقف عند هذا الحد.. بل استكبروا. وزادوا فى غيهم - والشيطان يعمل بينهم - نصبوا من أنفسهم قضاة لأبيهم، وأصدروا حكمًا مروعًا، وقاموا بالتنفيذ - اقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضًا يخل لكم وجه أبيكم - حذرهم الأب - قبل الخروج - أن يغفلوا عنه..

لم يشأ أن يرفض دعوتهم - حتى لا يجرح مشاعرهم!.

أجابوا بمنطق معسول: كيف يمسه سوء ونحن عصبة هكذا؟.

فى اللحظة التالية كانوا ينفذون جريمتهم - لم يخجلوا - وهم عصبة - أن يجمعوا ويجتمعوا فى مؤامرة ضد الوالد والأخ.

كل هذا الجهد من التخطيط والتدبير..وفنون الخداع والمراوغة، والخسة والنذالة المتدهورة - يتم تحت ستار الرغبة فى الحب.. والنزوع إلى المحبة حتى يخلولهم وجه أبيهم!.

ودائمًا الذين يفسدون فى الأرض - يبررون ما يفعلون - ويزيفون على أنفسهم والآخرين - نكون بعدها قومًا صالحين -

وهل الحب طريقه القتل والغدر. ومكر السوء، وقطع ما أمر الله به أن يوصل- والاعتداء على البراءة ..

وهل يستحق الحب من يريد علوًّا فى الأرض وفسادًا، ويضع نفسه مكان «الذئب».

دخل نبى الله يعقوب الامتحان العسير .. أُلقى فى غياهب الجب أتون من الحريق .. يتجرع وحشية الصورة وألم الفراق .. وحرقة الفقد، ونهش الخيانة والغدر..

زاده الألم والدموع .. الحزن والصبر الجميل ..

مكتوب على باب العذاب بأحرف من نور. «ومن يقنط من رحمة الله».

انصرف الأبناء «الأشداء» إلى أمور دنياهم، انشغلوا بها .. تركوا أباهم مع الحزن المقيم ..

عندما كان يذكر يوسف- يتندرون بذلك .. ويعدونها نكتة -- ويسخرون، خرف وخبال .. يلقون بالبذاءة أمام الوجه النبيل و «ألا تزال على ضلالك القديم»..

(إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله).

دعوة نبى .. يستعصم بالصبر الجميل .. لا شكوى فيه للناس ..
دعاء البث والحزن لله وحده القدير والمعين ..
لا إهدار «لفعل» الصبر، ولا تبديد لطاقاته الملهمة للنفس ..

لا مجال للصراخ أو الأنين والشكوى للآخرين ..

-ذكرتني بالنظرية العلمية الحديثة- الولادة بدون ألم- تعتمد فى أساسها أن المرأة مهيأة لعملية الولادة والحمل- وإذا كانت ثمة عمليات ميكانيكية مهولة، تجرى فى الجسم البشرى دون أن تحس بضرباتها الموجعة، أو إيقاعها العنيف وتفاعلاتها المثيرة- مثل هضم الطعام والتنفس- كذلك عملية الولادة بالنسبة للمرأة .. الجنين يدفع بنفسه غريزيًّا إلى الخارج، والرحم ينقبض ويتقلص ليقذف بحمله، وتأتى الدفعات على هيئة «طلقات» متتالية ..

فإذا صرخت المرأة وتعالت صيحاتها .. أهدرت قوة الدفعة وبعثرت جهودها .. بل إنها تعرقل عمل «المخ» المنظم للعملية كلها وتربك نظام إشاراته السريعة وأوامره .. ويتضاعف الإحساس بالألم ..

كذلك الصبر يحتاج للصمت .. تحمل «الضربات القاصمة» حتى تتحول إلى قوة دافعة، وطاقة تحمل وقدرة على الصمود ..

لا أنين ولا صراخ .. لكي نهيئ للعقل مهمة عمله فى التحليل والتدبير والتأمل .. والاستنتاج المدهش والقياس ..

إطلاق قواه وإشاراته الملهمة .. حتى تحتفظ بصفاء المجال الكل القوي الداخلية، وهكذا تتم العملية بصورة طبيعية .. ويأتى الفرج والمخرج .. ومن المعاناة نولد من جديد .

وحتى إذا كان الصبر على الموت .. فقد الأحبة ..

فالصبر يفتح لك نافذة الأمل .. أنت على موعد باللقاء .. فلتحسن عملك فى المرحلة التى تسير فيها وحيدًا .. لتعمل بقدرة مضاعفة لك ولمن أحببت .. لتحسن صنعًا وقولا وتنفع الناس لتكون جديرًا بحبهم ولقائهم فى ساحة الرضوان ..

أنت على موعد باللقاء فى أبهى زمان ومكان ، وأعظم صحبة ..

(أشكو بثى وحزنى إلى الله) .

نستعين بالآية على الحياة والعناء ..

عندما يرتفع مد الأحزان .. نتلوها قائمين وساجدين ، وتستعيد الكلمات فيها بيان وآيات للسائلين .

أن يظل القلب عامرًا بالإيمان – برغم كل ما يحيط – نبقى على ذلك النور الداخلى الكامن فى الأعماق .. ونعمل على طريق الاستقامة والخلاص والنجاة ..

ذلك الرجاء الفطرى السليم الذى يربط المخلوق بخالقه .. لا تستطيع قوة أن تنفذ إلى مركز للنور فى جوف المؤمن – قوى الحديد والنار لا تقطع سريانه ولا تخفت إشعاعه .. يوسف وهو صبى فى قاع البئر .. ظل يتعلق ببصيص الرجاء حتى أمسك بطرف الدلو ، ولما أحاط به « كيدهن » – وهو فى عنفوان الشباب – اعتصم بالله وتمسك بالعفة والاستقامة حتى هوى إلى قاع السجن !!

برغم ثبوت براءته .. وتجلى الحقيقة – واكتشاف مكر السوء ..

وقيام الأدلة – من أهلها – ظل مخذولا .. منسيًّا بين مجرمين .. ضحايا وخاطئين ..

ومع ذلك حول السجن إلى خلوة عبادة .. إلى مكان عمل .. مركز إشعاع لرسالة مقدسة .. ظل يمارس رياضته الدينية .. ويغزل حبال الصبر، ويكتسب المزيد من لياقته الروحية – ويرتفع فوق المحنة ليوقظ أرواح السجناء وعقولهم ..

مثل المسيح عليه السلام أيقن أنه بعث وسط خطائين.

وعندما نصل إلى ذروة القصة، وندرك كيف مكن الله ليوسف فى الأرض، وخرج ليطبق ما آتاه الله من حكمة وعلم .. ويقيم عدالة على الأرض .. ويصدر من مصر العدل والمساواة والإخاء ..

نمسك بين أيدينا بمعنى جليل .. ونصل إلى نوع من الجلاء البصرى أخاذ، على أنه مهما كانت الظروف، وتراكمات الأحداث، وتلال الخطايا، والمكائد الموضوعة، والتدابير المصنوعة، واستفحال الفساد.

يجب ألا نصل قط إلى تلك الحافة الخطرة – اليأس – منزلق يؤدى إلى الخذلان والتردى .. والخسران المبين ..

(ومن يقنط من رحمة الله إلا الضالون).

العزة والغلبة ونصر الله .. للمجاهدين الصابرين ..

الذين يعملون ويتقون ولا يأس لديهم أو قنوط ..

هكذا أينعت شجرة النبوة وهو ميراث الأنبياء للمؤمنين ..

كل منا يصاب يومًا - بهذا النوع من العمى المؤقت - وعلى المستوى العام والخاص .. الرغبة فى عدم رؤية القسوة والظلم .. ومظاهر اغتيال البراءة والنقاء ..

لكننا نحتاج للعمل .. للمثابرة .. للجهاد .. حتى تتجلى الحقيقة وترتد إلينا « نعمة البصر » - ولا نكون على البصيرة - معزولين ..

المعجزة الكبرى فى آيات - يوسف وإخوته - أن الأبناء القساة خشعوا عندما رأوا برهان ربهم .. تابوا وندموا .

وعندما خاب سعيهم .. وتبدد كيدهم .. ومكن الله ليوسف فى الأرض ، وكشف الضر عن أبيهم - ارتد كل واحد منهم بصيرًا - عرفوا كم كانوا قساة جفاة .. نوال الحب ليس بالتزييف والقتل والكيد وتدابير الجريمة ..

الرغبة فى الحصول على الحب والتأييد لا تكون بمكر السوء والكذب والتلفيق ، بل تستدعى عملا وصلاحًا والتزامًا بجانب الحق والصدق ..

واختلاف الليل وَالنهَار

أنصتُ إلى التلاوة ...

يشيع الجلال من حولى، يتأهب عقلى .. تسمو نفسى وتسبح فى بحار من نور، تعلو إلى آفاق من الحب والتأمل.

ندرك الحكمة فى إقامة القرآن .. صياغة النفس به كى ترتقى .. تتحرر يتسع وجودها حتى تجد غايتها .. الالتزام بالخير والحق، وكل مافيه نفع الناس .. ومرضاة الله.

ولأن آيات القرآن محكمة «مفصلة ومتصلة» نجده هكذا «حاضرًا» فى لحظة يملأ الكيان والسمع والبصر .. يصل إلى الحنايا والخلايا ويخفق منه الفؤاد.

تتراءى صوره «شاهدة» .. حية مليئة بالحركة، مثقلة بعطر

الألوان .. عميقة الدلالة والبرهان.

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون).

حقًا ماذا يحدث لو أن الليل ظل دائمًا ..

أو النهار بقيت آيته مبصرة، شاخصة واشتد وهج وحرقة الضياء .. ظلت الشمس مصلوبة فوق رءوسنا، والأشعة تشد منا الجفون والأحداق.

تلوت الآيات كثيرًا، واستمعت إليها .. تأملتها، ولكن ماذا تصنع بى الآن، ترجنى من الأعماق .. تعول بى، يهولنى وقعها .. أراها مجسمة، يأخذنى سحر البيان فيها، ومعجزة التبيان.

عجبت منها مرة فى الصغر، بدت لى الصورة محيرة .. بعيدة المحال، نائية عن الإدراك .. وعسيرة الإحتمال.

ويبدو أنى هربت من مواجهتها .. فررت كما آبق إلى السفين يونس الرسول .. فزعت من الصورة والمقابلة.

غيبتها فى منحنيات الذاكرة.

وفى رحلة التكوين والتعرف على شتى العلوم والفنون .. أذهلتنى جزئية صغيرة تقارب هذا التصور المبدع، وإن غاب عنى الأصل.

وصف بعض الفلاسفة الماديين « الجحيم ». قال واحد منهم عنه :

إنه عيون الآخرين ..

عيون بلا غطاء مفتوحة إلى الأبد .. كأن لا يمر بها ليل أو نهار .. لا تسكن، تطرف أو تنام .. لا تحصل على تلك « النعمة » المتاحة لنا جميعًا - طيبين وعصاة - ممنوعة من لذة الاسترخاء .. متعة تثاقل الجفون، والاستسلام للنسيان والنعاس .

كنت أردد لنفسى ياله من تصور فذ وتصوير ملهم .. كيف توصل التفكير إلى مفردات هذه الصورة الوحشية، المعذبة، إنه الجحيم بالفعل .. أشد أنواع التعذيب والعقاب ..

ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد جزئية صغيرة من المشهد الكامل المعجز الذى صورته الآية الكريمة إنه « الكتاب » نتعلم منه الحكمة نعتاد التفكير السوى المنطقى لقطة تضج بالحركة، بضوء النهار فيها « معاشا » والحياة تلهث .. وكل الأشياء تلهث شاخصة .. حارقة، مضنية القسمات .. لا سكن فيها ولا رحمة، لا أمن فيها ولا نعاس .

وتشحب هذه المرئيات فجأة .. ويغشاها ليل أبدى يرخى أستاره، حالك العتمة كثيف الظلمات .

خانق .. ثقيل .. مترع بالوحشة ، ولا بصيص نور أو رجاء من إله غير الله قادر على ذلك التعاقب بين الليل والنهار.

يذهب الليل ويجيء النهار، وكل بحساب .

دورة منظمة، دقيقة الوقع .. مرهفة الإيقاع ..

دليل على وحدانية الله

الزمن ينشأ من: (اختلاف الليل والنهار).

كلمة فيها الحركة، والتجلي والتواصل والاتصال.. الزمان يتخلق بمشيئة الرحمن أن:

(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل).

من هذا التدرج الأخاذ بين وشاح الليل، والخيوط المحملة بالضياء تكون دورة الحياة والأيام..

ليل نسكن فيه ونبيت.. ونهار نتحرك ونصرف أمورنا، ونعمل من إله غير الله..

تبينت عمق الدليل.. وسطوع البرهان.

لو أن الله جعل الليل سرمدًا.. من إله غير الله يأتي بالضياء.

ولو جعل علينا النهار سرمدًا.. من إله غير الله يأتي بليل يغشانا فيه النعاس ونحس بالأمن داخله واحتواء الرحمة والمحبة.

هو الله لا إله إلا هو..

التوحيد أقرب إلى الفطرة السليمة.

إلى اطمئنان القلب.

تعبد الإله الواحد، القادر الوهاب.. تناجيه بكل قلبك.. تناجيه وتدعوه، تأتنس به وتستعين.

التوحيد يلبى حاجة الإنسان الداخلية.. التعلق بالقدرة والقوة

ومصدر الخلق والإيجاد والإبداع.

ومع ذلك يجادل بغير الحق المعاندون.. والمفسدون فى الأرض وأشداء الكفر فى كل زمان ومكان.

يقولون دومًا (أجعل الآلهة إلهًا واحدًا).

كيف لمن يتشتت قلبه ؟ لكنهم يعبدون كثرة المال والسلطان والجاه، وشتى من الأوثان.

وتجىء الآيات الربانية متصلة بينة.. وساطعة كمعجزة برهان اختلاف الليل والنهار.

(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار).

منطق واضح جلى.. إرادة عُليا ومشيئة قادرة.. وقُوة مطلقة مصدر النظام والإتقان.

كل الأدلة والبراهين وأعمال الفكر والسمع والبصر، وتلقائية الفطرة وسلامة الفؤاد.. كلها تؤكد وحدانية الله.

تتقرب إليه بفعل الخيرات والعمل الصالح ومحبة الناس.

ويمنحك اطمئنانًا وسلامًا.

ويتألق جبينك بالثقة والعزة.

ويتعجب المستكبرون فى الأرض لماذا برغم كل ما يحيطون به أنفسهم من مظاهر السطوة والجاه.. قصور ومال ومتاع، ومع ذلك يلاحقهم الخزى ويحيط بهم الهوان، وينصرف عنهم الأتقياء وأولو العلم.

ذلك لأنهم يجعلون لله أندادًا .

يعبدونهم من دونه على الأرض .. ويخضعون .

يعبدون أشياء أصنامًا ، بشرًا متسلطين .. وجائرين .

يحكمون بالهوى ويتعدون حدود الله ، ويدخل كل ذلك فى خطيئة الشرك كذلك من يغش ويحتال ويزيف .. أو يروج لسلعة رديئة . ويلوى عنق الكلمات .

المؤمن ينعم بالحرية .. وتتألق لديه موهبة الاختيار .

للمؤمن محبوب واحد بيده ملكوت كل شيء .

الخضوع لله وحده وعبادته تجعلك حرًا .. لا تخاف ولا تحزن .. وتعيش حياتك فى سمو وارتقاء وعزة ..

وتقول الآية وهى تفيض نورًا .

(إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه) .

طريق الاستقامة هو الطريق إلى الله .

الاستقامة إلى الله .. ياله من تعبير معجز !

الاستقامة إلى الله هى الدليل والطريق والغاية والمقصد .

هى صلب عقيدة التوحيد . جوهر العبادة ، وصلة المودة والقربى .

إننا إذا فقدنا الاستقامة كأفراد .. وصفة الوفاء بالعهود والوعود اهتز بنيان المجتمع كله .. وانهارت البنايات وشاع الفساد ، وأكل الناس حقوق بعض بالباطل .

وذلك كله من أسباب تأخر المسلمين .. وهوانهم وفرقتهم وشتات قلوبهم يعيشون كأفراد ، يعمل فيهم الجشع والطمع .

والعلاج أن نقوى إيماننا ونقيم كتابنا ، ونستقيم إلى الله .

رَضى الله عَنْهُمْ

ظلت فى جوفى « الآية » أروح وأغدو بها .. تعمل فى عقلى وقلبى ، وأتلوها فى أكثر من سورة فى القرآن .. أفكر وأتدبر معانيها فى مشهد الفجر ، وتنفس الصبح وفى هدأة الليل والأسحار . حتى أشرقت بها نفسى ، وسطعت بنورها من حولى .. تجسدت أمامى صورة موحية .. وبيان تبدت كمعادلة باهرة .. ونتيجة فائقة :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

حنو غامر .. ونور أخاذ .

كفتا ميزان يقيمه لنا الله .. يرفعنا إلى جلال عدله .. ونعيم المساواة يجعل « الرضا » صلة متبادلة بيننا وبينه – سبحانه – حركة متصاعدة .. ووشيجة حب تسعى إلى الأفق الأعلى .

يشهد لنا «برضوان» يجعل منه سكنًا وملاذًا، ومخرجًا وهو الفوز العظيم..

الذين آمنوا وأحسنوا، والتزموا جانب الحق والصدق - ولا يوادون من حاد الله ورسوله - هم ومنهج الله شيء واحد.. وأسلوب فى الحياة أولئك يرفعهم الله درجات ويصطفيهم، ويفيض عليهم من نوره ورضاه. فيصلون إلى أعلى مراتب الحب والرضوان.

يسميهم «حزبه» ويكتب لهم العزة، والغلبة، والفلاح..

«يرضى عنهم» لأنهم يلتزمون شريعته.. خشيته هذبت قلوبهم وجعلتهم يعملون صالحًا.. ويقولون حسنًا، ويقيسون حركة حياتهم بمقياس الدين والقربى من الله.

كيف به جل وعلا يزيد من فيض كرمه وإكرامه ليقول فيهم «رضوا عنه» ذلك لأنهم يعشقون كل ما يجيء من عند الله.. ويحبون التكليف.. ويمتثلون كل ما أمر به..

يؤمنون عن يقين أن كل تشريع هو لخيرهم وصلاح بالهم وأمرهم وسعادة دنياهم، ووعد النعيم القائم..

لذلك «يرضون» يرفلون فى حلل الرضا والعزة.. ينعمون بالاستقامة وحلاوة الجهاد.. ومواجهة الشدائد والطغيان.

علاقة محسوسة وقوة دافعة.. رابطة حب أسمى. تزيد من

قدرتنا .. وتنمى حواسنا ، وتصقل أرواحنا ..

نستمد منها « قدرة » فوق قدرتنا .

بل نرتفع بها عن حدود إمكاناتنا إلى قوة وقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ بها تتضاعف الطاقة الكامنة لدينا .. وتنطلق الطاقة المبدعة .

وإذا كنا فى حياتنا هذه نكتشف عظمة وعبقرية بشر عاديين فى مرحلة ما .. ويصل إلى أسماعنا وأبصارنا نبأ أناس بسطاء حققوا أعمالا خارقة .. ومعجزات فى مواقف صعبة - حتى لتأخذنا الدهشة أنىّ لهم بتلك القوى ؟ وأين كانت تكمن ؟ وكيف برزت هكذا إما الشدة أو حدة الموقف .. وربما يشاركونا دهشتنا واستهوال ما حدث ..

كم من أم عادية .. نحيلة وهزيلة ربما .. لكنها تصبح كأعتى الأقوياء ، وتتحول إلى قوة ضارية وطاقة مهولة إذا فوجئت بخطر يهدد أبناءها .

فى قريتنا دفعت أم بشجرة غليظة ، كادت تسقط على ابنها - وكانت قبلها تشكو ألما بظهرها - وأخرى استطاعت أن تزيح عربة محملة من فوق صغيرتها ..

ونقلت إلينا وكالات الأنباء نبأ الأم التى اندفعت تخلص ذراع ابنتها من فم الأسد فى حديقة الحيوان .

ذلك أن الأم هى المخلوق التى شحن الله قلبها وكيانها بطاقة هائلة من الحب .. هى تستدعيها .. وتستقوى بها وتضاعفها حين

الشدة والمفاجأة .. ولا تلبث أن تعود لحالتها الطبيعية تشكو التعب والإرهاق وقسوة العيال والأيام.

فما بالك بإنسان يحبه الله، ويبادله رضا برضاء .. ويقول له فى آيات أنت بأعيننا لك العزة والغلبة والفوز العظيم.

إنسان يرفعه الله إلى مستوى عظمته ونورانيته ويجعله «راضيًا مرضيًا» كيف لا تنطلق لديه تلك القوى المبدعة، وتغمره العزة والقوة، ويصل إلى التوازن النفسى والروحى، وينطلق إلى مرحلة الرضا الكامل ..

دلنا الله سبحانه وتعالى على الطريق .. أن نجعل خلقنا القرآن وأعمالنا صالحة تبغى نفع الناس والقربى من الله.

نجعله معنا «حاضرًا» يسمع ويرى .. نتمثله ونخشاه ونقيم له الحب والطاعة والاستقامة ..

هدانا إلى آياته المحكمات، وفصلها لنا تفصيلا، وجعل القرآن «تبيانًا» لكل شيء، وضرب لنا الأمثال .. وخلق لنا من أنفسنا والكون المحيط بنا آية وتدبر وبصيرة .. ويساعدنا على الطريق .. ويمدنا بنور من لدنه وروح منه، ويتوب ويغفر، حتى نصل إلى أعلى المستويات.

فى الحياة نعرف أننا عندما نحظى برضاء من نحب، يتملكنا شعور من الزهو، وتغمرنا الثقة والاطمئنان .. وتتسع لدينا رحبة الحياة ..

ولو كان من يرضى حبيبًا أو معلمًا أو قائدًا أو رئيسًا يزداد لدينا الشعور بالأهمية، وحلاوة القربى.. وقيمة المودة فى حين أن من النادر - فى الواقع - أن تتساوى الكفتان. أو تنضبط تمامًا كفتا الميزان وتتوافق المعادلة.

إن رضاء «إنسان» علينا لا يعنى بالضرورة رضاءنا عنه - بل قد يكون وبالا علينا وفتنة للمتقين - كثير من الرؤساء وأصحاب النفوذ والسلطان «يرضون» لأسباب تتعلق بهم - ربما لأنك تؤدى لهم خدمة تزيدهم جاهًا وبريقًا وسطوعًا فى سلم المجتمع - رضاهم قد تكون مادته.. براعتك فى صنع الدعاية لهم - أو فى الخضوع والخنوع فقط مرضاتهم - لأنك تسخر جهدك وتسفح مواهبك لدى عتباتهم.

بعضهم يجعل طريقه إلى الرضا الزلفى والنفاق - وإزجاء كل المديح والحسنات لهم وحدهم. وقد يرضون ولكن على طريقتهم الخاصة - أن تظل من طبقة عبيد - إحساناتهم - وقد ينظرون إلى الرضا لديهم على أنه سلاح ذو حدين.. يمنحونه من يريدون، ويحرمون منه من يستقيم أو يلتزم العزة ويحافظ على كرامته.

لكن رضا «الخالق» يرفعك إلى أعلى يرتقى بك، ويزيدك علوًا ونبلا، بل ويستدعى رضاك أنت «المخلوق».

يجعلك تسبح فى بحار من الرضا بما حباك وهداك، وما شرع لك من حدود تحفظ كرامتك وإنسانيتك.. وتجعلك تعيش حياة طيبة

وتثبت أقدامك على طريق العدل والنبل .

وتجاهد فى سبيل الله لتصل إلى التوازن المثالى .. والعدالة الكاملة ، وتبادل المحبة والتمتع بالرضا والفوز به ..

ونعيم أن تكون ممن سماهم الله حزبه (رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

الله سبحانه وتعالى جعل من « الرضا » علاقة متبادلة .. إشعاع حب يتوهج بين الأرض والسماء ..

دعاء وابتهال ، واستجابة وتأييد .

إقامة للصلاة والقرآن ، ووعد الله قائم ، والبشرى فى الحياة الدنيا والآخرة جهاد وامتحان .. وتثبيت وتبيان ..

وهكذا يقيم لنا الله الميزان ، ويحقق لنا التوازن .. والسلام النفسى والاطمئنان .

ويغمرنا بنور المحبة ، ويرفعنا إلى القربى منه ، وغاية الإكرام .

فهرس

صفحة